محمد المنسي قنديل
مَن قَتَلَ مَريَم الصَّافي؟
دار الشروق
فريق
متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

من قتل مريم الصافي

محمد المنسي قنديل

عن الكتاب..

في عام 1970 وبينما كان محمد المنسي قنديل طالبًا في كلية طب المنصورة، فاز بالجائزة الأولى لنادي القصة عن قصة «أغنية المشرحة الخالية» قبل أن يضمها في كتابه الأول «من قتل مريم الصافي؟» الذي فاز بجائزة الدولة التشجيعية عام 1988. - يضم هذا الكتاب 14 قصة، كُتب معظمها في أواخر الستينيات وحتى منتصف السبعينيات، يربط بينها جميعًا أسلوب الكاتب السردي العذب المميز الذي بدأ منذ كتابه الأول.

- يتنقل بنا المنسي قنديل عبر هذه القصص من رحلة المعلم منسي تاجر الأقمشة إلى مركز المحلة، إلى العودة المفاجئة للمماليك من تحت الثرى، ومن صدمة ضابط حين يصل إلى موطن شهيد، وصولًا إلى قصة محقق بائس يبحث عن طرف خيط لجريمة غامضة لكنه يجد نفسه في مواجهة أخيرة مع مريم الصافي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خمس قصص قصيرة وأغنية لأبي

١

قال الرجل الذي بجواري: آلام المعدة لا تطاق. أود البكاء لكنني أشعر بالخجل.

تجمعت نقاط العرق على جبينه الشاحب. هززت رأسي آسفًا وابتعدت عنه، برغم الزحام استطعت الوقوف بجانب فتاة جميلة. وعندما كان الترام يندفع للأمام، كان جسدانا يتلاصقان برهة. لمستْ ذراعي ذراعها. كانت باردة كأنها ريح البحر.. تقابل وجهانا، قلت لها فجأة:

- إنني وحيد تمامًا.. وفي حاجة ماسة إلى صديقة.

لم يبد عليها دهشة كبيرة. ظلت واقفة بجانبي، حتى جاء الكمساري. قطعت تذكرتين لي ولها. ابتعدت إلى الجانب الآخر، وهي تهز كتفيها. كان الترام يهتز أيضًا. وصوت اصطكاك الصنج مثل استغاثة طفل صغير. خلا أحد المقاعد، دفعت الرجل الغريب دفعة خفيفة واحتللت المقعد، سمعته وهو يدمدم في غيظ مكتوم. نظرت من النافذة فاجأتني المدينة الغريبة كأنما تتربص بي. حتى إنني تساءلت بمرارة:

- لماذا جئت إلى هنا.. لماذا ركبت هذا الترام؟

أعلن بائع كثيف اللحية، يرتدي عقالا فوق رأسه، أنه يهب الجميع آية الكرسي وعِدّية ياسين مجانا، تحدث عن مزاياها الربانية العجيبة، ثم هتف موضحًا أنه لا يبيعها، لأن كلام الله لا يقدر بثمن، لكنه يطالب بهبة بسيطة لقاءهما.

دار الترام نصف دورة، حتى حسبت أنه سيخرج من فوق القضبان، دخل شارعًا أكثر ضيقًا. هبطت الفتاة الجميلة. هبط الرجل المريض، أخذ يترنح حتى وصل إلى الرصيف، جلس عليه ثم أجهش في البكاء. ظل الترام يخوض طريقه بصعوبة في الشارع الضيق والجدران تكاد تطبق على مقدمته، كان البائعون يحملون قدورًا ضخمة، يسكبون منها «حمص الشام» بعرض الشارع، تنفرط العقود الصفراء وتستكين بين شقوق الأحجار وزوايا القضبان، نهض الرجلان - الذي أمامي، والذي خلفي - وهبطا.. ولم يصعد أحد..

كانت الجدران تحمل نقوشًا مملوكية قديمة، تهمي علينا خليطا من الغبار والعفونة، تشق أحجارها شقوق غائرة تمتد عبر البيوت والحانات والوكالات، ومن خلال الكوات المظلمة، تلمع عيون الفئران وهي تتقافز في عصبية. المشربيات القديمة محطمة، مائلة على وشك الانهيار مثل وجه مجدور، يتصاعد من فتحاتها أعمدة الغبار الرفيعة. مآذن مكسورة تعشش عليها طيور سوداء.. عندما يفزعها صوت الترام، تحلق وهي تطلق صيحات غريبة، نباتات متسلقة تصعد فوق واجهات المساجد والبواكي كأنما تتمنى أمنية مستحيلة. وظلمة الشارع تزداد. ويهبط كل الركاب. ولا يبقى سواي، لا يبقى سوى الكمساري العجوز والسائق العجوز. اقتربا من بعض. أخذا يتحدثان وهما ينظران إليَّ نظرات خفية ويضحكان في صوت

خشن. كانا يعرفان كل شيء.. يعرفان مقدار وحدتي، وأنني جئت للمدينة الخطأ في الوقت الخطأ، وأنه ليس ثمة محطة أهبط إليها مهما غير الترام من وجهته..

٢

كنا - أنا وهي والعصافير - لا نأكل إلا قليلا حتى نشبع..

كانت الريح إذ تهب.. تبعثر خصلات شعرها مثل شبكة صياد، وتبعث داخلي شعورًا بالحسرة.. وتحرك أجنحة العصافير فتطير مبتعدة حتى تغيب عن أبصارنا.. كانت تقول لي: الأحلام الكثيرة تورث الضجر..

كان الشتاء يأتي فتختبئ هي خلف قناع من الصمت والعزلة، وأسير أنا وحيدًا في الطرقات الخالية. أحس بمذاق الرذاذ المالح، وأرى العشاق الذين يحولون حبهم إلى تفاصيل يومية، فأحس أنني أخدع نفسي، وأن نصيبي منها قليل، كحظي من هذا العالم، وأحلم بالأمطار صافية الزرقة، فلا أجد على الأرصفة إلا العصافير التي ماتت من الصقيع، قالت لي بصراحة ووضوح: لن أكون لك.. كف عن أن تحلم بي، لم أكن أملك إلا أن أحلم بها، تشكلت أحلامي وتحورت ولم تعد تطاوعني، هجرتني الأحلام القديمة، وتبدلت الرؤى، كنت أرى العصافير الميتة وقد نفضت ريشها، وأخذت تصوصو بصوت عال كأنها تستغيث. أرى منتصف الأرض ينشق عن شمس كبيرة زاهية مثل التي يرسمها الأطفال بالألوان المائية.. وتهبط أمطار صافية الزرقة لها مذاق سكر النبات.. ويمرق قطار خلال نفق أرضي يعبر الحدود بلا عوائق، ولكن كل هذا تبدل ولم أعد أحلم إلا بها وهي تقول: أنا لست لك لك لك.. مثل كروان حزين..

وحين أستيقظ سريعًا من النوم، أرى الشبورة الصباحية مثل بودرة منثورة، وقطرات الطل ترسم فوق الزجاج المغبش خطوطًا متعرجة، ترسم صورة وجهها.

٣

منذ اللحظة التي تحولت فيها إلى حصان، وأنا أحلم بقطعة من السكر.. حتى إن هذا الحلم شغلني عن رغبتي الملحة في العودة إلى هيئتي الآدمية..

لم أكُن أكف عن التجوال وأنا أجر العربة، سواء كانت خفيفة أو مثقلة بالأحمال، في مواسم الخضرة يضع صاحبي أمامي كومة من البرسيم الأخضر. وفي مواسم الجفاف، يضع جوالا من التبن الأصفر. وعندما كنت أبدأ الأكل، أتخيل أسناني وهي تجرش قطعة السكر فتنبعث رعدة في أعماقي ولا أستطيع الأكل، أثناء السير كان الحزام الذي يشدني للعربة يحك في فقرات ظهري، تهرأ جلدي، انفتح فيه جرح مستطيل. لم أكن أراه. كنت أحس بالذباب وهو يحط عليه ويلغ في دمي، لا أدري لماذا لم ينتبه صاحبي له وهو يواصل لَسعي بالسوط، لا أدري ما الذي يدعوه لمواصلة ضربي، طوال النهار وهو يرغمني على مواصلة السير واللهاث، وفي المساء يجلس أمامي ويبكي، يحتضن رقبتي وهو يقول: ماذا أفعل من غيرك، أريد أن أغفر له قسوته وبؤسه ولكني لا أستطيع.

يأتيني النوم وأنا واقف، وجميع قوائمي متصلبة.. ولا تأتيني الأحلام.. وعندما أرقد على الأرض وأثني قوائمي تحتي.. لا أنام.. عندما أحاول أن أتذكر أي وضع كنت أنام فيه أثناء هيئتي الأولى.. لا أتذكر.

لا أكف عن التجوال. في الصباح تتسع شوارع المدينة. وتصبغ الشمس ظلِّي فأراه منحنيًا. تضيق الشوارع. تصبح حارة سوداء مظلمة. وإسطبل مزدحم بالروث ورائحة البول. وعندما يراني الذباب الأزرق ذو الأجنحة المدببة، يرتفع من فوق كريات الروث ويحط على جرحي. أرى صاحبي وأولاده المرضى وزوجته المريضة. جالسين في أحد الأركان حول مصباح غازي، يتخطفون الأرغفة ويتبادلون كلمات السباب. فأغفو قليلا وأحلم بقطعة من السكر.

٤

قالت إنها قضت معظم الفترة الماضية في الإسكندرية، وإن هنا هو سبب سمرتها.. سألتها: هل استمتعتِ بوقتك؟

قالت بحيادية وهي تمط شفتيها: يعني!!

كانت السمرة المشربة بالحمرة تكسبها فتنة من نوع خاص تأملت يديها الموضوعتين فوق المنضدة. وأصابعها تتداخل وتفترق. لمحت في الإصبع الأكبر خطًّا أبيض. منطقة لم تمسها الشمس ولم تكتسب السمرة.

قلت: عندما تنعكس الشمس على شعرك، يصبح لونه أزرق.. يصبح غريبًا..

قالت: السجن جعلك أكثر شاعرية..

هكذا تموت المويجات ويسفر الماء عن ارتعاشات فاترة.. النافورة وسط النهر معطلة.. الصبي يبيع عقودًا من الفل، ويبالغ في الإلحاح، والجرسون يحمل ابتسامة ثقيلة ويضع فوق المنضدة فواتير باهظة.

قالت: هل تنوي العودة إلى السجن مرة أخرى..

لم أعرف إن كانت تسخر مني أم تشفق عليَّ، قلت: هل أنت خائفة من أن أفعل ذلك، الأمر ليس بيدي على أي حال؟

مطت شفتيها ولم تقل شيئًا، كنت قد أهديتها دبلة من الفضة الخالصة، كانت وقتها تضعها في يدها اليمنى وتقول إنها تعوقها أحيانًا عن الكتابة. لكنها لم تخلعها، يدها اليمنى خالية الآن.. يدها اليسرى خالية أيضًا، لكن فيها هذا الخط الأبيض الغريب.. كنت أمسك أصابعها وأظل أعد عليها: أحبك. أحبك. أحبك. فتقول وهي تبتسم: عشر مرات فقط. أردد وأنا أضحك: ماذا أفعل، ليس لك إلا عشر أصابع؟

تساءلت: هل أحسست بطول المدة؟

قلت: ستدهشين لذلك.. الذين في الخارج يعانون أكثر.. في الداخل الأيام كلها متشابهة.

- هل كان من الصعب العودة ومن التصرف بطريقة طبيعية؟

- العالم في الخارج عشوائي ومتعب ومليء بخيبات الأمل.. ولكنه طيب على أي حال..

أمسكت أطراف أصابعها. كانت باردة وأحسست رعدتها الخفيفة تحت أصابعي. لعلها كانت تفكر. هل تتركها في يدي أم تسحبها؟! تركتها مترددة. تحسست بإصبعي أثر الخط الأبيض.. كان ناعمًا مثله مثل باقي الجلد. في نفس الاستواء ونفس درجة الحرارة.. لا شيء.. غير أنه أبيض وبقية جسدها تغطيه سمرة مشربة بالحمرة..

سحبت يدها وتناولت كوب الماء.. رشفة صغيرة. وضعت الكوب وأبقت يدها بعيدة عن متناول يدي. قالت وهي تتظاهر بالاهتمام البالغ:

- هل آذوك؟

قلت.. ليس كثيرًا.. يكفي أن أحكي لك عن يوم واحد حتى تتشابه بقية الأيام.. ولكن أنت.. ماذا فعلت في الخارج.. مطت شفتيها.. يعني!!

قلت مباشرة: هل آذوك.. هل أرغموك على شيء ضد إرادتك؟

قالت في حدة: من تعني؟

كنت أود أن أقول لها هي تحبيني.. أسألها: أين خاتمي؟ أستحلفها أمازلتِ تؤمنين أني فعلت الصواب؟ نظرت في الساعة الصغيرة في يدها.

- سوف أتأخر..

فكرت.. ياه لهذه الدرجة.. قلت لها: سوف أوصلك.. قالت: سوف يرانا الجميع.. أنت ولا شك مازلت تحت المراقبة.

نهضت وتناولت حقيبتها. رأيت الخط الأبيض وأدركت أنه حقيقة مثل النهر الميت. والشمس البعيدة والفل الذابل. مثل السرير الواطئ الخشن. والجردل الذي يفوح بالنجاسة. والنافذة الصغيرة التي تبين جزءًا من السماء ولا تهب خلاصًا.. مثل صوت المزلاج في منتصف الليل، ومحاضر التحقيق الطويلة، وابتسامات الشماتة، واعتذارات الخوف.. قلت..

- فقط.. سوف أوصلك للتاكسي..

سرنا معًا. وقفنا أمام الكازينو، وأخذت أشير إلى كل سيارة عابرة. تمهل أحد التاكسيات وسألنا السائق عن وجهتنا أولًا. ركبت هي. وضعت أطراف أصابعها في يدي.. قالت: سوف أتصل بك.. قلت لها فجأة:

- هل تزوجت؟

أغلقت الباب. رفعت أصابعها وبدت كأنها على وشك الصراخ. لم تفعل. قالت كلمة أو كلمتين.. لم أسمعهما لأن التاكسي كان يزوم.. ومضت..

٥

كانت جدتي قبل أن تموت تهوى تربية الكتاكيت. حتى إن جدي تركها من أجل هذه الهواية وتزوج بأربع نساء أخريات. ولكنها ظلت وحيدة مثل صبارة عجوز. تجلس في الشمس تنثر الكتاكيت وتنثر حبات الذرة المدشوشة، والصواء يتعالى مثل نحيب النسوة الخافت. وهي ترقبها كأنها على ميعاد حتى تأتي «العرسة» بنت آوى، تسمع جدتي دبيب أقدامها، وترى بريق عينيها كأنها عيون الذئاب يتقوس جسداهما معًا. جسد جدتي اليابس الواهن العضلات. وجسد «العرسة» الغضروفي اللين. حتى إنهما يصرخان في وقت واحد. والكتاكيت في المنتصف ترعى في بلاهة. كأن جدتي تقدم قربانًا لقوى لا تعرفها. لعل جدي اكتشف ذلك وهرب.

وفي ليالي البرد الموحشة كانت تصرخ كأنما تناديها. تستيقظ جدتي وتظل تنتفض حتى الصباح. وعندما جاء الموت الرقيق البالغ العذوبة، بدت جدتي - وهي مسجاة - هادئة وديعة كأنها كتكوت مستنزف الدماء. وجاءت «العرسة» ونامت جنب قدميها في صمت حتى جاء المساء.

٦

أبوك يهرف كثيرًا..

تقول أمي ذلك في ساعات الضنك. ولكنها لا تتمالك ابتسامتها عندما تراه وقد انخرط في الغناء على دقات النول بصوته الخشن.. «آه يا نطاسي.. خاب الترياق.. ومت بسم الزمان».

عالم القاعة الرطبة موحش. وكأنه يمتص هذه الوحشة، بلونها بالأحلام الغريبة، لم يكن يملك شيئًا.. لكنه حين يفرد ذراعيه تبدو يداه الكبيرتان الغليظتان، وكأنهما تحملان في تجاعيدهما شذرات الأيام والشهور والسنوات، وفي خشونتهما ميراث العمل الدائب. وعشرات المهن التي تقلب فيها. كأنما يستطيع أن يحمل هذه البلدة الصغيرة - التي شهدت أيامه الأخيرة - في كف واحدة، يضعها جنب القرى والبلاد التي جابها، عبر البراري وبرك الصيادين، وأنهار الملح، وأشجار الدوم، ورائحة الروث والتمر حنة. ما بين حافة النهر وحد الصحراء، جوعًا وعشقًا وغربة. وعندما يدخل القاعة حيث ينصت نوله الوحيد وسط بقايا الأنوال المتكسرة، وآثار «الصنايعيه» الذين هجروا الكار، ويدق الدف بشدة فتجاوبه كل الدفوف، يحلم أبي بالصنايعية القدامى، وهم يرفعون أيديهم مرحبين.. كنا في انتظار دقتك يا عم منسي.

هكذا يحدثونه.. فيحدثهم أبي: يا إخوان، اليوم الذي يضيع يكلفنا الكثير، لكنه لا يضيع هباء، هكذا يواصل أبي الحديث. كنت صغيرًا حين تركت البيت.. كان بيتًا بسيطًا تغطي واجهته الأشجار الجهنمية الحمراء، وأمامه بئر يسكنها عفريت صغير. لكن العالم كان براحًا، وكنت كالمهر الشارد. وعندما عدت وجدت أبي قد مات، والبئر قد ردمت. وأدركت من يومها أنه لن يكون لي بيت، كنت أعمل وأنام

مكان عملي. هكذا يتحدث أبي.. وأنا جالس أمامه في أحد أركان القاعة أترقب حركات يده وهي ترمي المكوك لتلقفه يده الأخرى. وتتواصل الدورة. لكن المكوك كان يخونه فيفلت ويقع في المنتصف. أسارع بمناولته إياه، ثم أجلس صامتًا حتى لا أقطع سيل الحلم المتدفق.

ثم ذهبت للجيش.. قادونا إلى أقصى الشمال، وقالوا إن الأتراك والألمان سوف يهاجمون مصر. وكان الضابط يحبني، فقال إنهم يخدعوننا وإنهم أخذوا السلطان أسيرًا. وهربت في منتصف الليل حتى قابلت امرأة من الغجر.. وظللنا ننام بين الزرع الشيطاني ثلاثة أيام متواصلة، كنت أضع رأسي فوق صرتها وأتطلع للسماء فأرى القمر مثل كرة من نار. ثم تركتني لتلحق بأهلها وعاودت السير حتى نسيني الجيش.

يتحدث أبي وأنا أُهمهم مبهورًا. أرى الخيوط وهي تتعانق، والأقمشة البهية الألوان تتخلق، ويحلم أبي أن كل رفاقه القدامى يتوافدون على القاعة حتى الذين ماتوا وهم منكفئون على النول. فيهتف مرحبًا: يا رجالة كنت أصغر الصنايعية، وكنت أمهرهم. جاءني حاكم البلدة التي أعمل فيها، وكان تركيًّا أبيض الوجه. قال لي هذه لفات الحرير، أنسج لي منها ثوبًا يليق بمقامي، وكان الحرير غريبًا يا رجال، ليس له لون محدد لكنه يشع ضوءًا كالجوع الدائم والرغبة الدائمة. منذ أن بدأت العمل فيه والقاعة تتوهج بالأضواء القريبة، وعندما يزول النهار ويأتي الليل. تظل الشمس معلقة فوق قمة نولي. كان هناك اللون الأصفر الشبيه بالأسى والندم. والأحمر الدافئ كأنه طرف لسان المرأة الغجرية، والأخضر مثل الزرع الشيطاني الذي دهسه جسدانا. والأزرق كأنه بحر الله الواسع وكأني لا أكف عن العوم، ولكما نسجت ذراعًا أوشكت على البكاء.. حتى إنني فكرت في أن أحمل نولي وأهرب بعيدًا حيث أختبئ وأظل أنسج في هذا الثوب ما بقي لي من عمر، لكن الثوب لم يكد يستكمل حتى جاء التركي وحراسه وانتزعوه مني عنوة، ولم يعطوني حتى عرق يدي، ولكنهم تركوا داخلي عشرات النجوم الصغيرة الملونة. هكذا يتحدث أبي.. لقد صنعنا الكثير، وسوف يتذكرنا الجميع بالخير.

البراري

شمس الشتاء الواهنة خلف ظهر العمدة. البلدة خلف ظهره أيضًا.. والضابط أمامه. الجنود متكئون على العربة العسكرية، كان الغبار يغطيهم وتبدو عليهم كل مظاهر الإنهاك، يتسكع حولهم بضع من الأهالي، يبحلقون فيهم بفضول أبله. مضت أكثر من ساعة منذ ذهب الغفر وغابوا خلف بيوت القرية المحنية دون أن يعودوا بجواب. ظل العمدة يداعب لحيته محاولًا أن يبدو مهتمًّا. الضابط يدخن في عصبية. تحت أسفل عينيه نصف دائرة زرقاء، همهم العمدة:

- صدقني يا حضرة الضابط. في الأمر بعض من الخطأ..

أومأ الضابط، كانت العربة خلفه كالحربة في الظهر. طلب العمدة منه الجلوس للمرة الرابعة وتناول أي لقمة، رفض رغم مفاصله المتيبسة. عاود العمدة الهمهمة:

- يعني هو في حوالي الثلاثين من العمر..

تضايق الضابط. رمى بقية السيجارة لم يدهسها.

- كلا. أصغر من ذلك بعدة سنوات، اسمه عبد المجيد داود. هذا هو المؤكد؟

أكد العمدة: أجل.. لكن..

حدق الجنود في الأهالي فابتعدوا قليلًا. ولكن أحدهم تقدم من أحد الجنود وعرض عليه سيجارة، وسأله في اهتمام:

- كيف الحال عندكم في الجيش؟

قال الجندي: عال.. دون نفس.

كانت هذه ثالث بلدة يدخلونها وهي تحمل الاسم نفسه، وتحتشد بالوجوه نفسها، والبراري قفر بلا جواب. لهاث طوال الليل ووجوه رافضة في الصباح. مع كل حفرة ترتج العربة ويرتج الجنود والصندوق يخزهم كالإبر.

عاد الغفر أخيرا، كانوا ثلاثة يقودون فيما بينهم فلاحًا بالغ النحول. يتطلع خائفًا للجميع، أمره العمدة:

- تقدم يا ولد يا عبد المجيد.. قف أمام حضرة الضابط.

كان وجهه أسمر شاحبا. لاحظ الضابط آثار الجدري القديم. كان عمره أقل من الثلاثين. أصيب الضابط بخيبة أمل.. نظر للخلف. بدأ الجنود يستعدون لركوب العربة وقد ازدادوا كآبة. لم يجد بدًّا من إلقاء الأسئلة المعادة.

- هل لك أقارب يحملون نفس الاسم؟

أجاب الشاب خائفًا مرتابًا:

- لا يا بيه.. أنا مقطوع من شجرة (تأمل العربة والجنود في فزع).. أنا عريس جديد يا بيه..

ضحك العمدة بجفاف.. ضربه على ظهره بغير لطف.

- الله يجازيك يا عبد المجيد.

بحلق الشاب فيهم وأضاف مصرًّا: أنا غلبان يا بيه.

شوح الضابط بيده مقروفًا. استدار نحو العربة، لاحقه العمدة كظله، أعاد ترديد كلمات الضيافة والتمسك ببقائهم دون صدق حقيقي، لم يدر الضابط أين يذهب.. كان فقط يريد الابتعاد، ظل الشاب واقفا مفتوح الفم. كف الأهالي عن التسكع وأقعوا جنب الحائط. كان حنق الضابط كافًا حتى يشعر العمدة بالذنب.

دخل الجنود العربة وأحسوا بالتعب. كان الصندوق في نفس الموضع صامتًا باردًا كأنه ذنب. والعمدة يردد:

- لا يمكن.. والله لا يمـ..كـ..ن.

فكر الضابط، سوف أعود للوحدة. فشلت المأمورية يا أفندم اتفضلوا.. قال العمدة فجأة:

- اسمع يا حضرة الضابط هناك بلدة أخرى بجانبنا (وأشار ناحية الغرب).

أدار السائق الموتور. أمسك العمدة الباب في إصرار.

- اسمها «منية السور» أيضًا.. منية سور البر الغربي.

قال الضابط متضايقًا: هذه ثالث بلدة تحمل نفس الاسم.

- هنا منية سور البر الشرقي.. صدقني (وأشار مرة أخرى) خلف هذا الجزء. لا تنحرف وسوف تجدها عن يمينك..

قال السائق: يا فندم سوف نتوه من جديد.

قال العمدة.. سأرسل معكم أحد الغفر.

زام الموتور مرة أخرى، اندس الغفير جنب السائق، تضاءلت البلدة واكتشف الجنود نفاد ما لديهم من سجائر. عاود الصندوق الاهتزاز. تحول صوت احتكاك مفاصله إلى نوع من التأوه الموجع.

تتوغل العربة. يضمها صدر البراري البراح. تطل عليهم سماء باهتة بلا انفعال ولا ألفة. قال الضابط:

- هذه البلدة. أهي بعيدة؟

أرتج على الغفير. كان مرتابًا. لا يعلم إن كانوا سيعيدونه للبلدة مرة أخرى أم يتركونه في العراء، أخذ يسب العمدة في سره، بلع رياقه وقال بغتة:

- كم كان عمره؟

قال الضابط بغير ارتياح.. ماذا؟

- القتيل.. أعني الشهيد.. هل كان صغيرًا؟

فكر الضابط.. حتى هذا الغفير يحاسبني هو الآخر. كان يعاني من صداع حاد، تخيل أنه سيظل يطوف البراري هكذا دون أن يستطيع العودة للموقع، تذكر رائحة الهواء الساخن المشبع بالبارود. والسماء التي تظل حمراء لأيام متتابعة، خاصة عندما يشتد القصف، لم يكن يفصل بينهم وبين العدو سوى شريط من الماء الأزرق المتسخ مليء بالسمك الميت، ومساحات شاسعة من الكراهية، وصفوف من شواهد القبور، تمام يا فندم. استدعوه عند غروب يوم قاس. كان القائد سمينًا بعض الشيء، محتقن الوجه، لم يتحدث إليه كثيرًا، وقع إذن المأمورية بسرعة وناولها له، قال بصوته الأجش:

- هنا اسم الشهيد وعنوانه، خذ معك خمسة من الجنود، سيكون أمرًا طيبًا أن ترافق أحد جنودك حتى النهاية.

كأن الموت لا ينهي أي أمر من الأمور، فكر الضابط. إنني حزين ولا أستطيع البكاء. أستطيع الضغط فوق بدال المدفع، والصراخ بالتعليمات وتلقي الجرحى. لكن ليتني أستطيع البكاء، قال الغفير في إصرار فلاحي.

- هل كان متزوجًا؟

توتر الضابط. زعق مهددًا: اسمع لا شأن لك بتلك الأمور.. هذه أشياء تخص الجيش..

انكتم الغفير. سأله السائق عن الطريق للمرة الثانية فأشار إلى الاتجاه صامتًا، ما زال جندي المراسلة يطوف بين المواقع المتباعدة. وعندما سقط الجندي لم يستطع أن يتسلم رسالتين. واحدة من أبيه، وواحدة من زوجته، كتبها ابنه في الصف الرابع الابتدائي، وظل الجنود صامتين، ولو استطعنا العودة به لأقمنا قبرًا صغيرًا وشاهدا فوقه خوذة. هنا يرقد رفيق السلاح إسماعيل عبد المجيد داود أسمر الوجه، مجاملا لدرجة البلاهة، لم يعرف امرأة سوى زوجته، لم يسرق إلا مرتين من غيط الجيران، دخل السينما أربع مرات بناء على إلحاح زملائه.. نال ترقية واحدة ما لبث أن نزعت منه لسبب لم يفهمه بالضبط، كان هو وأبوه وأمه وأخوه الأصغر يمتلكون فدانًا واحدًا يقيمون وينامون عليه، ويستأجرون بجانبه فدانين من الإصلاح. لم يكن الضابط يرتاح له كثيرًا. مات في صمت، وتوقف دمه عن النزيف بعد وقت قصير.. أفاق الضابط، كان الغفير يطلب من السائق الرجوع والاتجاه إلى ناحية أخرى. أوقف السيارة ثائرًا:

- يبدو أننا لن نصل يا فندم.

التفت مغتاظًا نحو الغفير.. هل تلعب بنا؟ هل تعرف الطريق أم لا؟

انتابت الغفير حالة من البلاهة، ظل يشير إلى نفس الاتجاه، أومأ الضابط للسائق حتى يدير مقدمة العربة. ثم هدد الغفير:

- آخر مرة خد بالك وإلا..

تساءل الضابط إن كان ثمة طريق محدد للعودة.. تكاثفت الأشواك ونباتات الحلفا، أحاطت بالعربة وكونت ممرًّا رفيعًا خانقًا. أحسوا كأنهم يغوصون في قاع من الخضرة المتسخة والهوام الدقيقة، أحسوا بالهواء ثقيلًا عطنًا.. كان الصندوق تعبأ مثلهم. طال به التطواف، وتمزق العلم الثلاثي اللون في أكثر موضع، قاد السائق ببطء، ومع ذلك لطمت النباتات والأشواك زجاج السيارة بعنف، كانت الشمس بعيدة وكذلك السماء، قال الضابط:

- لماذا ينتشر هذا الاسم هكذا؟

قال الغفير: اسم من؟

- ميت السور.. ثلاثة بلاد ونفس الاسم.

اعتذر الغفير: فلاحين يا بيه.

حاول الضابط الضحك. اكتشف أن سجائره قد نفدت، ود لو يصل ويرى أبا الجندي، سيكون عجوزًا متغضنًا، لابد وأنه كان يتوقع ردا على رسالته الأخيرة، ولسوف يصدم عندما يؤكد له النعش أنه لا يوجد رد، سيكون هذا رهيبًا، لكنها نهاية لهذا التوهان على أية حال. سيحفرون قبرًا ويقيمون صلاة مختصرة دون إطلاق رصاص.. لعل النباتات تتراجع.. لعل السماء تقترب.. هتف الغفير:

- أهه.. منية السور.

ارتفعت مقدمة العربة. وانكشف ظهر البراري من جديد. قرية تحمل نفس الملامح ونفس الناس تترامى خلفها حقول داكنة الخضرة، أطل الجنود من الثقوب الموجودة في جدار العربة، وكانت القرية تكبر كل لحظة. توقفوا. كان الناس يقفون صفًّا متجهمًا أمام بيوتهم، حاصرتهم عيون الناس - الرجال والنساء - في صمت راكد ثقيل، تلاشت فرحة الغفير، أحس الضابط بعدم الاطمئنان، أحس بالعداء الغامض وهو يتخلق من ترددات الأنفاس.. تقدم ثلاثة من الأهالي، لم يتعرف الضابط على أي هوية رسمية من منظرهم. قال الغفير وقد شابه التردد:

- منية السور.. البر الغربي؟

فجأة. قال أكبر الثلاثة في حدة: اذهب.

ارتد الغفير مصدومًا. تقدم الضابط يحسم الموقف:

- نحن نبحث عن شخص يدعى عبد المجيد داود.. إن... (أشار للعربة).

لكن الرجل قاطعه بنفس النبرات الحادة:

- اذهبوا كلكم، اذهبوا بعيدًا.

بهت الضابط. قال بهدوء: نحن نحمل جثة أحد الشهداء.

تقدم رجل آخر وقال للضابط بوجه خاص:

- لا شأن لنا بذلك. اذهب بعيدًا. أرض الله واسعة.

نظر الضابط والجنود والغفير لبعضهم حائرين. والوجوه أمامهم بالغة الصلابة تحمل تحفزًا مجهول المصدر. أحسوا بوطأة العداء حولهم، والاستعداد للاشتباك فورًا دفاعا عن شيء لا وجود له، أكد الغفير:

- والله العظيم هي البلد بعينها.. أنا جئتها أكثر من ألف مرة.

نصب الضابط قامته. رفع صوته لعله يذيب من حدتهم:

- اسمع. إن معي أوامر عسكرية.. أين أبوه؟

لكن الرجل لم يهتز. لم تضعف نبراته.

- اذهب، قلت لك (وأشار على ناحية الشمال) هناك بلدة تدعى منية السور.

زعق السائق فجأة: كلا.. هذا جنون.

ما زال الضابط على استعداد للتفاهم: ما اسم بلدتكم أنتم؟

شوح الغفير بالبندقية. منية السور والله. لم يرد الرجل. هبت رياح باردة وظلت العيون تترصدهم تحمل نفس التهديد والضابط يسأل: أين عمدتكم؟

لم يتحرك أحد. كفوا حتى عن الكلام. جلس الغفير على الأرض وضرب كفا بكف، قال السائق في شبه توسل:

- ننصرف يا فندم. نعود.

قال الضابط هامسًا في دهشة ممتزجة الخوف:

- لماذا يتصرفون هكذا؟

- إنه الموت يا فندم.. سوف نعود لوحدتنا.

انسحب الجنود للمؤخرة. كانوا غرباء والصندوق أشد غربة، البراري متجهمة لا تعطي سوى نباتات الحلفا. والسماء عكرة والشمس واهنة.. لم يلح السائق. ألقى الضابط نظرة أخيرة لكن أحدًا لم يتحرك.

ركب. زعق الغفير وقد نهض فجأة.

- انتظروا خذوني معكم..

زفر الضابط حانقًا. نظر في المرآة الجانبية، كانت البلدة وناسها ساكنين والغفير لا يزال يجري ويزعق. أحس الضابط بنوع غريب من القهر، برغبة في النشيج، كان الوجه الأسمر شبه ممزق، وعندما رد جندي الخدمات الطبية عليه طرف الغطاء، لم يصدق الضابط أن ما يراه هو الموت. هكذا. باترًا وسريعًا ولا رجعة فيه. عاد يردد. لماذا يتصرفون هكذا؟ من أين يكتسبون هذه الشراسة؟

قال السائق وهو يشاهد انفعال وجهه: يا فندم.

لم يكمل، تضاءل الغفير حتى اختفى. عاودت نباتات الحلفا الارتفاع. قال الضابط لنفسه: سوف أعود للوحدة. أدفن الجثة وأقدم استقالتي، سأمكث بجوار زوجتي هدى الصغيرة وأبي المتقاعد. طلب منه السائق أن يغلق الزجاج الجانبي حتى لا يتسلل الماء إليه. كان المطر يهطل في خطوط نحيلة، تمتد فوق الزجاج الأمامي. تغبشت صورة الأراضي، أحس بالبرودة، لو أن الليل يأتي وتختفي تجاعيد البراري، لا تقابلهم بلدة أخرى. تواصل العربة السير بلا توقف، وحلم فجأة أنه داخل الصندوق المهتز، وأن إسماعيل بوجهه المهشم الدامي يحاول أن يعانقه، بينما تتسلل قطرات المطر خلال ألواح الخشب وتسقط في فمه، يقول له أنت يا أبي. وأنت يا أمي. وأنا طفل يتيم.

استيقظ وهو يشير للسائق صارخًا: اذهب في هذا الاتجاه...

وتذكر الرجل العجوز والعمدة والغفير والقائد ووجوه الأهالي. زام السائق:

- يا فندم مستحيل.. لا يوجد بنزين.

أشار له في صرامة: اذهب..

سمع الجنود صوت الضابط المضطرب. أوشكوا هم أيضًا على الصراخ، وظلت قطرات المطر تدق فوق رءوسهم دون أن تخفي صوت الصندوق. كان يهتز بشدة حتى خشوا أن يتفتت فجأة ويظهر إسماعيل ممزقًا دون كفن، من الكوة الصغيرة خلف السائق فوجئ الضابط بأحد الجنود يطل عليه. قال في توسل حقيقي:

- يا فندم ندفنه هنا.

التفت إليه مذهولًا. استطرد الجنود:

- كلها أرض مصر (وأشار بعينيه إلى البراري والمطر والحلفا) كلها مصر.

أشاح الضابط بوجهه. كان الماء يسح فوق الزجاج. أغلقت الكوة. ضاعف السائق السرعة. لطمت الحلفا الزجاج، وأحس الضابط كأنه يصفع. هبطوا في منخفض أرضي. ارتفع رشاش من الماء المتسخ، لم يعد ير شيئًا. وفكر: هل أنا محموم؟ أصبحت الأرض لزجة والعجل يلف بصعوبة. أزاح الزراع كمية أخرى من الماء.. وظهرت البلدة الجديدة.

توقفوا أمام البيت الأول. ضغط السائق النفير في صبية. دوّى الصوت كالعواء. شق الصمت ولم يرجع صدى. نظر الضابط وهو في أول الشارع المؤدي إلى قلب البلدة. وضع يده على خاصرته منتظرًا. ظل الجنود صامتين يحدقون في الصندوق وقد توقف أخيرًا عن الحركة. صفعت موجة من الهواء البارد الضابط بقسوة. توقف السائق مستندًا إلى حائط مبلل. قال:

- يا فندم (لم يلتفت الضابط نحوه) لا أحد هنا.

أنزل ذراعيه في وهن. ظل يحدق في الشارع الخالي الموحل حتى تداخلت كتلة البيوت.. والسائق يتوسل:

- نعود يا فندم.

كان ممتقعًا. بدأ السير في اتجاه القرية. حاول السائق الكلام أو السير خلفه، على الجانبين تحدق البيوت ببلادة. الأبواب مفتوحة وبطون الدور مظلمة. المصاطب خالية متآكلة يتناثر عليها بقايا أوراق عجفاء مبللة. أكوام الزبالة والروث والسباخ بلونه الأزرق القاتم. سيقان الشجر المقطوعة والمحاريث القديمة. ازدادت دوامات الريح فوق الجدران المتهالكة. امتزجت نقوش الحج والانتخابات. المقهى الصغير المغطى بالسناج ليس به إلا بضعة من الكراسي المحطمة. عند المنعطف الأول تعثر في جثة كلب مبقور البطن. أوشك أن يتقيأ.. ضاقت الطرقة وانحنت البيوت فوقه. أصبحت العربة مائلة، والسماء أشبه بجوف صندوق خشبي يحتويهم كلهم. سمع صوتا فالتفت فزعا لكنها الريح تمرق من شق جدار. كانت تعوي. سار عبر المنعطف الثالث والرابع وتشابكت المعالم كالقبضة المحكمة. فكر. لن أستطيع العودة.. لن يأتوا لإنقاذي.. وعندما نفذ من المنعطف الخامس وجد نفسه في ساحة واسعة مليئة بالطين وبرك الماء. خلع القبعة، وأحس بقطر المطر ينحدر فوق خديه دمعًا باردًا.. أحس بالتعاسة أيضًا.. توقف قرب المنتصف وهو يزعق:

- يا عبد المجيد يا داوود.. معي ابنك.

لم تجبه الريح..

- معي جثة ابنك..

لم تجبه البراري.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أغنية المشرحة الخالية

أخذ فمي يتلوى باحثًا عن النطق الصحيح للمصطلحات، تهشمت الكلمات بين أسناني، رددت أسماء أعضاء الجثة المختلفة.. كانت مسجاة أمامي في استسلام أبدي، والصمت يملأ المشرحة، ذهبت ضجة الزملاء وثغاء الزميلات الذي لا ينتهي، عبثت يدي بلا مبالاة في عضات الجثة الممزقة، عدت أحدق في كتاب التشريح العتيق.

فاجأني الصوت الذي أعرفه جيدًا وأتوقعه، مزق صمت: مساء الخير يا دكتور.

عم أحمد فراش المشرحة.. عرفت ذلك دون أن أرفع رأسي.. كان يعرف جيدًا أنني لست دكتورًا.. وأنني مجرد طالب في السنة الأولى..

- الدكتور ينوي الجلوس قليلًا..

القطار الذي يقودني إلى بلدتي ذهب، لن يأتي القطار الآخر قبل ساعتين، لم أتناول الغذاء بعد.. في جيبي خمسة قروش.. ورقة قديمة بالية.. رفعت رأسي إليه.. الابتسامة الملتصقة على شفتيه تكاد تسقط على الأرض، عيناه تضيق عن نظرة متحفزة.. قلت:

- باقٍ على موعد إغلاق المشرحة ساعتين.. أليس كذلك؟

اتسعت ابتسامته.. لابد أنه اكتشف أنني غبي..

- نحن كلنا تحت أمرك.. للصبح لو أردت.

لكني كنت مصممًا ألا أفهم.. لم تزل أمعائي تتلوى من الجوع بعد أن تبخرت أكلة الصباح.. صحيح أن الطعمية تحدث نفس التلوي.. لكنها أهون على كل حال من التلوي على لا شيء، حدق فيَّ بملل.. هززت قلمي بعصبية.. قلت:

- سأجلس قليلًا، لن أحتاج إلا أكثر من ساعة..

تبددت ابتسامته، بدأت خطواته تتراجع.. تمتم بلا أمل:

- على راحتك.. على أقل من مهلك..

ظل يتراجع حتى خرج، تسللت أصابعي، تحسست الورقة البالية وهي ترقد في استكانة.. ألقيت على الجثة نظرة فارغة.. غرقت مرة أخرى في الكتاب.. طن في الأفق صوت قطار بعيد.. تذكرت حاجتي إلى الراحة والطعام.. اهتزت صورة بيتنا القديم.. قال أبي:

- ذاكر.. ذاكر يا إبراهيم..

في صوته رجاء ورغبة ملحة.. تمايل خلفه صف طويل من الوجوه.. وجوه إخوتي الشاحبة.. سألت نفسي: متى تخرج من قاع البئر؟.. متى نرى الشمس. يهز أبي يده.. يهش ذبابة..

- كل شيء بيد الله..

استسلم أبي منذ زمن بعيد.. ألقى سيفه مكسورًا.. أكلته الحياة.. مضغت عظامه ولاكت لحمه.. الجثة هي أيضًا مستسلمة.. كل يوم تندس أيدينا بداخلها، تقطع الشرايين والأعصاب، وتنزع العضلات والأغشية من أماكنها لتبحث عن شيء لا وجود له..

ارتفع صوتي بالقراءة، أدركت أنني أزدرد قلقي الأسود الذي لا ينتهي، مددت أصابعي أتحسس الجثة الباردة، غاصت في تلافيف الدهن العفن.. زمان.. كنت أهرب إذا رأيت صرصارًا.. وكنت أثور عندما يذكّرني إنسان ما أنني فقير.. والآن.. ماتت في نفسي الأشياء الحية.. لم تعد تهز قلبي المشاعر البسيطة.. من البيت للقطار.. من القطار للكلية للقطار للبيت.. دوامة لا تنتهي.. حشد طويل من الكلمات والكتب.. والأحلام الكبيرة تتضاءل.. تنزوي.. يخفت بريقها وتوشك على الانطفاء.. قالت زميلتي ذات النظارة:

- أتعرف.. ياقة قميصك بالية وممزقة..

امتدت يدي في فزع تخفي القطع.. اهتز وجه أبي في عنف.. صرخت في جدران بيتنا الأسود:

- قميص.. أريد قميصًا..

تضاءل صوت أبي.. تناهى إليَّ من عالم آخر..

- كتاب التشريح كان غالي الثمن.. اشتريناه منذ فترة قريبة.

عاد عم أحمد يبتسم.. اختلط بكاء أخي بصوت القطار.. أحسست بنفسي أرتعد.. اهتزت قدمي في عصبية.. عدت للصراخ..

- أريد قميصًا.. يعني أريد قميصًا..

قبضت على العضلة في قوة.. صحت مرددًا اسمها.. امتدت أصابعي تبحث عن الأصل الذي تبدأ منه العضلة والوتر الذي تنتهي به ويلصقها بالعظام.. مزقت الأغشية في عصبية.. امتلأت المشرحة بأشباح لا نهاية لها..

اختلط صوت أبي الخافت مع صوت الدكتور وهو يشرح.. وعم أحمد وهو يلقي تحية المساء.. نظرت إلى سقف المشرحة.. ألقت على الأضواء ظلا باهتًا.. قلت لنفسي: سأكون يومًا شيئًا ما.. لابد أن أصنع من نفسي دكتورًا عظيمًا.. ضحك مني وجه برناردشو.. قال:

- الطبيب الفقير.. أخطر الأطباء على المرضى..

انتزعت أحد الأعصاب في عنف.. خيل إليَّ أنني سمعت آهة من الجثة.. ترى مَن كان هذا الإنسان؟.. أي أحلام دارت في ذلك الرأس المنزوع المخ.. من ذا يتصور أنه في يوم ما كانت مأساتي قميصًا.. مجرد قميص.. سمعت وقع خطوات.. رفعت

رأسي.. وجدت عم أحمد يقف على باب المشرحة وهو يحدث فيَّ.. التقت عيوننا.. ضحك متكلفًا: آهه.. هه..

رددت أنا أيضًا: آهه.. هه.. هه.

عدت أحدق في شعر زميلتي.. وأتحدث عن السياسة.. والمستقبل.. الروح الجامعية.. وأحلام الشتاء الغامضة.. لكنها قالت في إصرار:

- الياقة بالية.. بالية.

ولما سرت محني الرأس رأيتها تضحك مع زميلة أخرى.. أدركت أنها تضحك عليَّ.. أحاطتني ضجة الزملاء.. لكني كنت وحيدًا.. نظرت إلى كل الجثث الممزقة الممددة أمامي.. قلت في صوت عالٍ:

- ما الذي تعرفون عن الفقر.. ماذا تعرفون عن المذاكرة الدائمة في ضوء المصباح الغازي حتى تظلم عيناك..

تجاوب الرنين مع صوتي فصحت.. توقعت أن ينهض عم أحد من جوف إحدى الجثث وهو يضحك.. تحسست خمسة القروش البالية مرة أخرى.. قلت لأبي ذات يوم:

- لماذا يتطلع الفقراء دائمًا إلى أعلى؟

هز أبي رأسه: لأنهم يعيشون دائمًا في الأسفل..

ضاق فمي بطعم الطين والغبار.. لن آكل بعد الآن من جثث الذكريات.. أتسمعني يا أبي؟ هناك طريق غامض ينتظرني بعد تلك السنوات.. على أن أنسى كل ما خلفي وأسير فيه.. نهض إخوتي من خلف المناضد الرخامية.. امتلأت العيون بالزجاج.. صاحوا:

- كم نفقد من أجلك؟

أدركت أن وجوههم الصغيرة شاحبة ومريضة. وأن هناك آلاف الأشياء المفقودة تقع خارج عالمهم الضيق الخانق، رددت في صوت خفيض:

- لكن القميص.. أريد قميصًا..

كان صوتي أجوف.. يرن في سرداب الليل بلا صدى.. وصرخ القطار يدعوني إلى عذاب كل يوم.. حيث أضحك.. وأضحك.. أموت من الضحك وأنا أضحك.. يحملون جثتي ويلبسوني كفنًا وأنا أضحك.. وعندما يغلقون باب القبر عليَّ.. وأعرف أني وحدي، تنساب في قلبي خيوط الكآبة.. وأبكي.. وأبكي.. كما لم أبكِ من قبل.

قال أبي في استسلام: الصبر.

عاد يردد في ثقة: الصبر.

أفزعني بوم الليل فجأرت بالرفض.. رفضت الجدران السود.. وطعم الشاي المالح.. وكل الأشكال الرمادية.. ضحك زملائي.. ألقوا كراريس المحاضرات.. قالوا في

فرح:

- هناك رحلة للقاهرة: للإسكندرية.. لكل العالم.. تعالوا نلف العالم..

ولما وجهت إليَّ الدعوة اكتشفت أنني بلا ساقين.. وأن أحلام اليقظة شلت الجزء الأمامي من فخذي.. وفي المساء كتبت إلى زميلتي قصيدة مدحت فيها شعرها الأسود.. وفستانها الأخضر.. ووجهها المستدير كقرش الصاغ.. ولما جاء المساء طالعني وجهي الشاحب في المرآة فمزقت القصيدة.. وصفر القطار فحملت كتاب التشريح كأنني أحمل قدري..

قال صديق في فزع: أنت لا تستطيع أن تناصب العالم كله العداء..

توقفت يدي عن العبث بالجثة.. خطبت في باقي الجثث:

- أعلم ذلك، ولكن لماذا يناصبني العالم كله العداء؟

استقلت زميلتي فوق إحدى المناضد الرخامية.. قال صوتها الباتر:

- هأنذا أمامك.. اكسر نظارتي.. قطّع فستاني الأخضر.. مزق جسدي بمشرطك، ولكن هذا لا ينفي أن ياقة القميص بالية.. وممزقة.

تاهت عيني على المناضد الخالية.. قبضت أصابع الصمت على عنقي.. فاجأني صوت عم أحمد:

- أنت منور.

اغتصبت ضحكة من أغوار سحيقة: نورك.

قال صديقي.. كان فقيرًا مثلي.. يحب المستقبل.. يحب الابتسام ولا أدري لماذا.

- لا تعش داخل نفسك.. اخرج من القوقعة.

ضحكت بصوت عال.. تذكرت أنني أحب الكثير، وأكره الكثير.. وأنني بعد المطر أحدق في ألوان قوس قزح النقية وأحلم بالمستحيل.. والزميلة عندما كانت تضحك لم تكن تعلم أنها تمزقني.. وعم أحمد.. يعلق بسمته فوق شفتيه ويود حرماني من الغذاء.. عادت يدي تعبث في الجثة.. لكني أدركت عبث ما أصنع.. لن أستطيع أن أركز.. سأظل هكذا تتجاذبني آلاف الأحاديث والخواطر.. مركب حائر.. لن أجد ميناء أبدًا.. سأظل أبحث عن فنار يعطي ضوءه بلا ثمن.. أغلقت الكتاب.. غسلت يدي بلا اهتمام.. باقٍ على ميعاد القطار ساعة كاملة سأتسكع في الشوارع.. آكل بعيني البيوت القديمة.. أجلس في المحطة الخالية لتعزف لي أغنية أشد حزنًا وتعطشًا.. ألقيت نظرة أخيرة على الجثث.. حدقت في عيونها الفارغة. سألتهم:

- أي أناس كنتم؟ أي أفكار دارت في ذلك الرأس قبل أن ينزع عنه المخ.

دق حذائي وجه الصمت.. لفظني باب المشرحة وحيدًا.. خرجت الشمس والهواء النقي.. الخالي من «الفورمالين».. لكن الصوت الذي أعرفه عاد يرن حولي:

- بدري.. لمَ العجلة؟

التفت إليه - كان قد علق الابتسامة فوق شفتيه مرة أخرى.. هززت رأسي.. مددت أصابعي إلى خمسة القروش الوحيدة.. قلت:

- خذ يا عم أحمد..

ازدادت الابتسامة اتساعًا.. قال في قوة:

- لا يا بيه.. مستحيل يا بيه.. غير ممكن يا بيه..

وقبض عليها، لا بأس.. كانت مجرد خمسة قروش بالية قديمة.. مثل ياقة القميص.. مثل الأحلام الشاحبة التي تعبر أفق حياتي.. وتموت.

١٩٦٩

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الجزء الأخير من الليل

العالم كريه.. أنا أغوص في حدائق الليل.. أبحث عن ثمار الأشجار الجوفاء.. غسلت الأمطار المدينة من التراب ولوثتها بالطين.. أنفث في وجه الظلام دخان سيجارتي ولا أفكر في شيء محدد..

تمنيت أن ألف العالم لكني وحدي في الطرقات والليل يوغل في الزمن، عقاربي توقفت منذ أجيال بعيدة، في نهاية الشارع أبصرت الشرطي يتنقل ما بين الأرصفة في قلق، ضحكت، تذكرت السمكة التي تشفي كل الأمراض ولا تكف عن التكاثر..

كان طعم القبلات مرًّا.. تلامس لحمينا أكثر من مرة.. تشنجت عضلات الوجه والشفاه، في محاولة بائسة للبحث عن لذة، اكتشفنا أنه لا شيء، وأن حبيبتي فقدت عذريتها منذ زمن لا أتذكره، اعتدى عليها إنسان ما في مكان ما على قارعة الطريق.

أنا.. أتمنى لو أن العالم كله نافذة زجاجية واحدة أقذفها بحجر واحد وأجري.. إلى أن أغرق في المحيط، أبحث عن جنيات البحر العذراوات وعن آلهة الأقيانوس القدامى..

في المساء انتحر أحد أصدقائي.. كتب وصية يشتم فيها العالم ثم صعد فوق كوبري حديدي صدئ وألقى بنفسه في الماء.. قالوا إنه ندم في منتصف طريق السقوط وفكر في العودة.. لكن الهواء اندفع باردًا وانزاح الماء فاغرًا عن هوة مظلمة. صرخت في الليل أنني لم أعد أؤمن بشيء، وأنني أريد أن أحاكم محاكمة عادلة قبل أن أموت، لكن القضاة أفهموني أنه لا معنى للعدل، وأن المصطلحات القديمة يُجرى الآن تبديلها بسرعة كبيرة.. كنت أحب صديق.. اكتشفت ذلك عندما جاء المساء علينا ولم أجده بيننا.. تبادلنا النكات المألوفة حول الشواذ..

- مرة واحد كذا.. شاف واحد كذا..

رأيت وجه حبيبتي يتلوى من ألم غامض، تسللت البرودة إلى عظامي فنهضت، عرض عليَّ أحد الأصدقاء أن يسير معي ولكني رفضت، عدت أتأمل الشرطي، يروح ويغدو بين الرصيفين.. هل من الممكن أن تقتنصه سيارة في المنتصف؟

سألت حبيبتي عن عدد الذين جردوها من ثيابها، قالت بلا مبالاة: كثيرون. ولما أصررت أعادت القول: كثيرون، صرخت وأنا أضغط على عنقها.. كم؟ قالت لمجرد ألا يضيع الوقت حوالي خمسين.. صمتت قليلًا أو مائة. قابلت بدقة أكثر ما بين الخمسين والمائة.. وكان جسدها متعبًا ومنهكًا، وأقسمت إنها بمقاييس العصر وبعيدًا عن التحديد الأكاديمي لم تزل عذراء..

في المقهى مر علينا أحد المتسولين، قال إنه من المهاجرين، فضج الجميع بالضحك.. لو أنني فوق ذلك الكوبري الحديدي أتطلع إلى السماء والنجوم، أراقب لمعان الأقمار المندثرة، ثم قفزت بلا مقدمات، أتهاوى في جوف الفراغ والسكون، أستعرض حياتي كلها في كلمة واحدة.

- لا شيء.

لكنني اكتشفت أن صديقي لابد فعل ذلك، وأنه خير لي أن أموت في بطء..

اقتربت من الشرطي، سمع خطواتي لكنه ظل يروح ويغدو بين الرصيفين، خطواته متسقة كأنه يقيس اتساع الشارع، خيل لي أنني أعرفه قبل الآن، وانساب الشارع من حولنا خاليًا باهتًا.

رأيت كثيرًا من الحواة ينامون على المسامير يأكلون الزجاج، يطفئون النار في أفواههم، لكني كنت موقنًا أنهم موتى.. كلهم موتى، وحلمت ذات يوم أنني قتلت رجلًا قصيرًا أسمر اللون، بدا لي بطريقة لا تقبل الشك مصابًا بربو مزمن، ولما قتلته صرخ الجميع بوجهي:

- هو أبونا خوفو العجوز.. هو أبونا المقدس.

ضحكت، حاولت إفهامهم أنه مجرد إنسان عجوز، سيموت بالربو في أقرب وقت على أية حال، لكن الوجوه التفت حولي، رأيت حبيبتي تخلع ثيابها وتحرضهم على قتلي، لكني بعد أن استيقظت أكدت لي أن هذا لم يحدث، واكتشفت أن لخوفو نفس وجه الصديق الذي انتحر، وبدا لي النيل غاية في الغموض.

اقتربت من الشرطي أكثر.. قلت:

- مساء الخير يا شاويش..

رد التحية دون أن يلتفت، ضايقني أنه لا يحس بي، لابد أنه يحسب أنني خائف منه، العالم كله فوق صدري، ماذا لو اختفت كل هذه المباني بطريقة سحرية، يتحول إلى ساحة واسعة لا نهائية تمتد من الأفق إلى الأفق. لحظتها سأصرخ بأعلى صوتي، أردد كل ما عرفت من أبيات الشعر والخطب الحماسية، أدندن كل فلسات شتراوس، أملأ كل الساحات بالموسيقى ثم أجري إلى الأبد.

لم يزل الشرطي يسير يقطع الطريق في نفس الخطوات، كأنني لم ألقِ عليه التحية، وكأني لم أستطع الجري حالًا، قبل أن أترك لنفسي فرصة التفكير تحركت قدماي، وجدتني أجري، نعم أجري، في الأحلام كنت دائمًا أرى ساقيَّ مقطوعتين، لكني الآن جريت.. خدشت أقدامي جلد الليل، امتد الشارع أمامي مخترقًا بطن الأفق، من الخلف سمعت الصوت مذهولًا:

- ما هذا؟! قف.. لا تجر.

يأمرني أم يرجوني، شعرت بالسعادة، فتحت صدري للهواء النقي وأسرعت، يدق حذاء الشرطي الأسفلت محاولا اللحاق بي، تناثرت حولنا بقايا الأمطار القديمة..

- توقف.. أنا لا أحب الجري.

وصديقي لم يستطع التوقف، كان في منتصف المسافة تمامًا، وموجات الماء تنزاح في اتساع والهواء البارد يتصاعد ويخترق جسده حتى النخاع، والسماء خلف

ظهره، لأول مرة منذ أن ولد والسماء خلف ظهره، وحبيبتي تخلع ثيابها لكل عابر طريق.

- كم أنا متعب! صحتي لا تحتمل، أرجوك.

لعلها ذات يوم خانتني مع هذا الشرطي، خانتني مع أحمس قبل أن يذهب لطرد الهكسوس. من يومها وأنا مشلول، كان يجب أن أجري، أهرب من الأمطار، من آلاف التماثيل الرخامية.. من خلف العقارب المعطلة. والضحك على نكت الشواذ.

- لن أحتمل.. لن أحتمل..

صوت العسكري ضعيف واهٍ.. عبرنا أكثر من نصف الشارع ولم يزل الأفق بعيدًا كأنه أمنية مستحيلة. اخترق السكون صوت الصفارات، صفارات غريبة أشبه بالنواح. التفت إلى الوراء، وجدته واقفًا والصوت النائح يتعالى، يخترق الحارات، فزعت لأنني لم أكن أحب الصراخ، وعندما عاود الشرطي الركض، ركضت من جديد، ازدادت الصفارات.. انسابت إلينا من شقوق المنازل والحارات الثعبانية، تحولت الخطوات إلى ألف خطوة، هتكت سكون الليل دقات آلاف كعوب الأحذية.

نظرت خلفي، تحول العسكري الوحيد إلى عشرات العساكر، يلبسون زيًّا واحدًا ويجرون في إيقاع منتظم، حاصرني لحن رهيب، مؤلف من الصفارات، وتداخل كعوب الأحذية، صرخت في وجهها:

- لماذا وضع الجميع بصماتهم عليك؟

تأوهت في صمت ودفنت رأسها في الوسادة، لم أترك الفراش، كنت غير قادر على الهبوط والجري، ظلت سيقاننا متلامسة، وصديق كان يدور في دوامة رهيبة، في إحدى الأمسيات نهض من فوق المقهى وأخذ يدور في الساحة الواسعة، وهو يتمتم بلحن غامض لم أسمعه من قبل، ولما لفحني هواء النيل المشبع بالموت كان لحفيف الريح نفس اللحن.

يتكاثرون كأنما ينسابون من الشقوق ويهبطون من السماء، والخطوات تصك الأسفلت في عنف، يا لها من رغبة جنونية أن أبحث عن شيء لا وجود له، لماذا لم أصرخ في وجه العالم، أنت كريه، هذا الشارع بلا نهاية، والبحار المظلمة بلا قاع، والأفق المتراجع بلا قلب، السماء منذ يومين لم تكف عن الأمطار. والمدينة لم تزل متسخة، لا الأحلام القديمة تتحقق ولا الخطوات التي تطاردني تكل، صدري يضيق، نفسي يتقطع.. يتدافع العساكر:

- قف.. قف يا ابن الكلب.

حاولت الضحك، شعرت بالتعب، الظلام يتكاثف، الخطوات تقترب:

- قف يا ابن الكلب.. لن تستطيع الهرب.

وعندما سقطت أحاطوني، رأيت وجوههم تحوطها غلالة وحشية. لا أستطيع الكلام معهم، أخرج ما في جيبي من سجائر، وأعترف أنني أخطأت عندما بصقت في وجه

العالم، لكن عشرات الأيدي امتدت نحوي. صرخت بأعلى صوتي:

- لا.. إني أرفض.

لكنها هوت فوق وجهي وصدري، فوق أعضائي الزجاجية المحطمة، انهالت عليَّ «أكوام الألم» دون أن أعرف المصدر المحدد للضربات، كنت أتقلب يمينًا ويسارًا ولا أحد يحميني، لا جدران. لا أغطية ولا أقنعة، والركلات في جنبي دمدمات حيوانية، جسدي كله يدمي، كيف أقول لهم إن آلاف الشهداء يموتون كل يوم بلا قضية، يضحكون، اختلط الضرب بالدمدمات الحيوانية، الضرب لا ينتهي، أنا أيضًا لن أنتهى، سأظل هكذا أتقلب، أضرب، أنزف كل دمائي، وأمارس الرفض.

١٩٦٩

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

سعفان مات

الساعة الخامسة صيفًا.. حيث يبدو النهار شاحبًا وميتًا.

تعثر طفل صغير في حجر صغير، نظر إلى السماء وبكى، حدقت سيدة محترمة في جسد أحد الرجال السمر، شعرت بأشياء غير محترمة بداخلها، لكنها واصلت السير بهدوء، الساعة الخامسة يا أبي. الخامسة صيفًا.

بدا أن الأرض ستتم دورة من إحدى دوراتها في هدوء كما فعلت ملايين المرات. صعد طيار أمريكي شاب إلى سماء قرية حقيرة في فيتنام وهو يدندن بأحدث أغاني «بول ديلان».. عزف الراديو إحدى سيمفونيات «برامز» حيث يختلط الحب بالرغبة في البكاء، لكنها كانت سخيفة..

الساعة الخامسة بلا دقائق.. بلا ثوان.. الخامسة يا أبي صيفًا.

من جوف السماء انبعثت صرخة حادة. ملأت كل فراغ الأرضية. صرخ صوت مشروخ يحمل كل جفاف الجنوب:

- حاسب يا ريس.

من خلف أكوام المونة وأطلال أحجار البناء وتلال الرمل النقي تعالت عشرات الأصوات في إيقاع واحد غريب:

- حاسب يا بوي.. حاسب يا بوي.

ويبدو الأمر غريبًا يا أبي عندما يتعلق بالموت، نتذكر نحن المصريين البؤساء وجوه آلاف الأجداد الذين ذهبوا خلف الأفق، تكتسي كل المعاني طابعًا واحدًا، وعبثًا نحاول يا أبي، فكل أنهارنا تصب في محيط واحد متخم.

قال الصعيدي الوحيد الذي شاهد الحادث وهو واقف أمام الضابط:

- أيوة يا بيه.. كنت واجف يا بيه.. فوج السجالة يا بيه.

قال بقية الزملاء يؤيدون زميلهم:

- احنا غلابة يا بيه.. وأنت فرعون يا بيه.. وأنت آمون يا بيه.

وكنا في آلاف النجوع يا أبي نموت في دورة الفيضان والجفاف، تفتح علينا قبورنا بلا استئذان.. ويلقي علينا سعف النخل ظلالًا تجعلنا نحلم بما خلف الأفق.. وعندما يحملنا مركب قديم، يجتاز حضن أبونا النيل إلى الشمال حيث العمائر والمواني الرطبة، حيث نجد العيش الجاف، ونشم هواء الزيت المحترق، كنا يا أبي لا نعرف أن اسم النيل «حابي»، وأن أمنا اسمها «إيزيس».. وكنا يا أبي مصريين بؤساء.

أشار الدكتور للمريض حتى يعيد الغطاء إلى وضعه الأول، أطلت القدم المتسخة المشققة فشعر بالاشمئزاز، قال:

- كسر.

هتف الجميع: إيه؟

قال في انتصار وهو يرسم في الهواء إشارة مجهولة:

- كسر.. كسر في العمود الفقري.

وفي الفضاء كان ثمة شخص بلا توازن، رأسه إلى أسفل وقدماه ترسمان الرقم سبعة في وجه السماء. ويقولون إن الشخص في هذه الحالة يفقد بصره قبل أن يفقد وعيه، ويظل يصرخ بلا جدوى إلى أن يصل إلى حضن الأرض.

وفي الأسفل كانت هناك عدة غرابيل قديمة لفصل الرمل والزلط، وخلاط ضخم للمونة، وعدة أكوام من الطوب الأحمر القاني، وعروق طويلة من الخشب عليها لون أبيض مالح، وبغض النظر عن حفر الماء المتناثر كان هناك كثير من الفتيات يحملن قصعات المونة وواحدة منهن تغني أغنية غير مفهومة لا يسمع منها إلا كلمة:

«يا ولداه».. (وتقول كثيرًا من الكلمات الملتوية ثم تواصل..) «يا ولداه»، وهكذا يا أبي لم يكن شيء مُعد للسقوط، فكيف صرخنا وسمع الجميع صوت الصمت، بيننا آلاف العمائر وبيتنا في العراء، شيدنا أضخم الأهرام، ودفنا في حفر قذرة تحت الأرض، ولماذا يغمرنا الجفاف حتى الموت، وعندما تحملنا المراكب الشمالية لا يصيبنا إلا الذبول، نبعث للأهل رسائل ركيكة، نحلم في سطورها العرجاء بيوم العودة والراحة، وأبدا أبدا لا يأتي هذا اليوم، نموت فوق السقالات، وتحت حمالات الشحن في المواني، وخلف أكياس القطن في المحالج، نعرف طريق الحانات الرخيصة وجلسات «الغرز»، ويفتح لنا الليل أبوابه الخلفية، نشم كل الروائح ولا نستطيع الفكاك من رائحة العفونة.

في المساء ضحك الدكتور وهو جالس بين أصدقائه، كان يتأمل أيدي اللاعبين وهي تنقل قطع الشطرنج وأحدهم يهتف:

- تتش موف.

ضحك الدكتور وقال: كسر في العمود الفقري.

لم يجبه أحد، ظل شعور الملل الصباحي يلازمه، حدق في أضواء النادي. تذكر أنه قد مرت آلاف الأعوام منذ الساعة الخامسة صيفًا، وأنه يجب أن يكون سعيدًا، حاول أن يتخيل الوجه الأسمر النحيل، كان مختلطا بآثار الدم والأسمنت.. قال في سرعة:

- «فراكشر إن ذا فرتبرال كولوم».

أومأ لنفسه في ثقة، عاد يحدق في اللعب، صرخ الضابط:

- الاسم؟

قال نفس الصعيدي بنفس الصوت:

- سعفان ولد سعفان.. من نجع السعافنة يا بوي.

قال الجميع:

- نجع كله شديد يا بوي.. اشتركوا في بنى الهرم، ناس منهم سافروا المكسيك، وجماعة اشتركوا في حرب بلاد المورة يا بيه.. ربنا يخليك إحنا ماعملناش حاجة.

لوح الضابط في وجوههم بملل:

- كان بيشتغل إيه بالضبط؟

- كان صعيدي يا بيه.. اشترى الترمواي، وبنى البرج والسد، وكان زميل سبارتكوس في محاجر الكبريت.

سعفان ولد سعفان. من نجع السعافنة، الجنسية مصري، فصيلة الدم مجهولة، في جسده بقايا من الأمراض المتوطنة القديمة، وفي عينيه حزن يمتد عمقه خمسة آلاف سنة إلى الوراء. من نجع السعافنة يا أبي.. بعد أن تترك خلف ظهرك صفوف الحقول الخضراء حول النيل وتقرأ الفاتحة لسيدي عبد الرحيم، تخوض قدماك في الرمل الناعم، وتصبح الصحراء والشمس كتلة واحدة ملتهبة..

وتجد نفسك نقطة صغيرة تافهة على وجه مصر الأصفر العريض ثم يبدو الجبل على يساره قدرًا لا مفر منه، قد تجد هذا النجع يا أبي، قد تقابلك فتاة صغيرة لا تعرف من العالم أبعد من حد النيل، عيناها سمراوان داكنتان، تمسك ذيل معطفك وتكشف عن صف ناصع من الأسنان وتقول:

- أبوي ما عاد يبعث جوابات واصل، عاتجولش نسي، ما في أخبار من حداه.

ويبدو أننا في هذا العالم غرباء إلى حد ما، فلكل تاريخه الطويل، ونحن تاريخنا في الموت، وعندما نقف في مواجهة رياح العالم نكون عرايا، تختفي من داخلنا ذكريات الطفولة ولا نجد على ألسنتنا إلا طعما مُرا علقما. ويبدو يا أبي أن الأحلام في أيام الجفاف لا تلد إلا السراب.

أواه.. ما أطولها تلك الساعة الخامسة صيفًا!

جروا إليه من كل مكان، شاهدوه وحوله بقعة واسعة من الدماء، ألقت الفتاة القصعة وتوقفت نهائيًّا عن الغناء، وظل الصدى يردد كلماتها الغامضة:

- يا ولداه.. يا.. ولـ..داه.

بانت في وجوههم ملامح غريبة، تساءلوا: لماذا مات هكذا؟ لماذا عاش هكذا؟ ومن فوق السقالات صرخ أحدهم كحيوان جريح:

- يا.. بو..ي.

ورد الجميع عليه:

- آه لو جعدنا مطرحنا.. لوما بحّرنا واصل..

تخيل يا أبي لو أنهم لبثوا في الجنوب وتركوا الشمال للشمال. يبنيه أو يعيش على أنقاضه، ماذا لو أنهم منذ آلاف السنين، لم يظهر فرعون يمسك الكرباج. يسوطهم

ويزرع داخلهم جرثومة البناء، لا تبنوا، ما الفائدة؟ أنتم تبنون منذ آلاف السنين، أثواب الشمال تتغير.. ألسنة الشمال تتغير، وأنتم تحملون الأحجار. تضعون الحجر على الحجر. يأتي الغزاة من سهوب الأرض الباردة. وأنتم تضعون الحجر على الحجر، تتغير آلاف الأقنعة الحضارية وأنتم تضعون الحجر على الحجر.. الحجر على الحجر.. الحجر على الحجر..

ألقى الممرض عليه غطاء أبيض.. وفرقع الدكتور بإصبعيه في الهواء.

- كسر في العمود الفقري.

فردد الجميع: كسر في العمود الفقري.

لكني أفضي إليك بالسر يا أبي: سعفان لم يمت من الكسر. سعفان كان ميتا منذ زمن بعيد، زرعت فيه أيام الجفاف حقولًا قاحلة. وخلف الحلم بلا أمل بقايا من الرماد ملئت داخله حتى مات. سعفان كان ميتا حتى من قبل حفر القنال بزمن بعيد. لكن الذي حدث أن الضابط أقفل الدوسيه وقال بالحرف الواحد: يُحفظ.

١٩٦٩

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الأشياء

البداية..

ودائمًا.. لابد من البداية.. رغم تفاهة الأشياء، لابد من النبش تحت التراب بحثًا عن حروف الهجاء، وبلا بداية كان القطار يسير، قطار طويل نحيل كأنما لفظه رحم الكون لتوه، فمضى منتعشًا بنغمة الحياة، ينفث دخانا أسود، يعلو ذؤابات الشجر، ويرسم في الهواء خطوطا ملتوية لكلمات غامضة، والجو يميل إلى الغروب.. غروب شتوي قاتم..

العالم من النافذة..

الأشياء تنزاح إلى الوراء في عنف.. الأرض الزراعية الواسعة تدور نصف دائرة شاسعة مركزها القطار، النباتات الصغيرة بجانب القضبان ترتعش.. هواء مشبع برائحة الزرع والتراب.. يهجم خلال النافذة.. صف طويل ممتد من أشجار السرو العالية.. خلفه صف يبدو أقصر قليلا يسير في اتجاه مخالف.. قممها تسمو للسماء في صلابة..

على اليمين.. ترعة صغيرة مياهها الفضية مثقلة بالطين والقاذورات.. شريان غريب انفصل عن أمه النيل، في رحلة طويلة.. قطع خلالها آلاف الترع والرياحات.. لكي يموت وحيدًا وسط الأراضي الواسعة القفرة.. أعمدة التليفونات تتابع في إصرار رتيب.. تأتي من الأمام في محاولة مستميتة للثبات، لكنها تتراخى في عنف وتختفي، الأسلاك لا نهائية تشتد بجانب الأعمدة وتتبعج في الوسط، تسترخي في موات، تنفر من فوقها العصافير قبل أن يلوثها الدخان، حقول الأرز شاحبة، يلقي عليها الغروب ظلال مخصبا، بين آخر وآخر يظهر في حدود الإطار.. بشر ما.. فلاح ضئيل يغرس يديه، يخفيها تحت طبقات المياه السميكة فوق الأرز، يتطلع إلى القطار في استغراب، يفتح فمه ولا يرفع يده.. وامرأة جالسة.. تغسل بعض الأوعية - خليط من النحاس والفخار - على حافة الترعة، تكشف الجزء الأمامي من فخديها.. عندما يعبر القطار، تضع يدها فوق أوعيتها في خوف، تحملق فيه ملتاعة حتى يختفي..

الأرضية..

مستطيل صغير بين المقعدين، مغطى بطبقة من الجلد اللين، أطرافه منتفخة على أثر نشع به ماء متسلل من مصدر مجهول.. وبغض النظر عن أعقاب السجائر المتناثرة والتي كانت تكون «موتيفًا» ثابتًا.. هناك قطع بالموسى.. يكشف عن جزء كبير من الأرضية المتسخة، وفوق تلك الأشياء تناثرت دوائر كبيرة من البصاق، بقع صغيرة تأخذ أحيانًا لون الأرضية.. وأحيانًا تنفرد بلون أبيض، تتجمع بعض الدوائر فوق بعضها، تكون عدسة مائية، مرخاة الأطراف، وبالقرب من الباب ورقة مفضضة، لعلها بقية «الإسبرين» أو دواء من نوع آخر..

القبضان..

رغيف خبز طويل لا ينتهي، والقطار جائع شره لا يشبع، في المقدمة تأتي من خلف الأفق، تشع بريق النضج والرغبة التواقة في اللقاء، تتلوى حركة ثعبانية، تفقد كل ملامحها، لا يظهر منها إلا خطان لامعان، يحملان نداء الرغبة الحار، القطار يطويها، يأخذها في صدره العريض، يهرسها تحت عجلاته في شبق، ينز عرقه زيتًا أسود يلطخ الفلنكات.. ثم يصرخ صرخة حيوانية مثل صهيل حصان جامح. عشرات القرى تمر، إيقاع ثابت لا يتغير.. وكأنما أوغل القطار في الرغبة والشراسة ظهرت من خلف الأفق خطوط ثعبانية جديدة.

في المقدمة نفس العناق المحموم في المؤخرة ترتمي خلفه مجهدة.. ملامح متميزة، قضيبان متوازيان يعلو جوانبهما الصدأ.. فلنكات خشبية ملوثة بالزيت الأسود وبقايا نفايات آدمية أخرى، حفنات من الحصى والزلط، والأرض قفر واسعة، تمتد امتدادًا خرافيا حيث لا أفق، ولا شيء حي، لا شيء يتحرك، يتنفس، يعطي أي نوع من التناسق، سوى هذه الرغبة العارمة والعناق الأبدي.

الكمساري..

يرُجّه القطار مثل زجاجة منتفخة يُراد خلط سوائلها، تحولت اهتزازاته المتكررة إلى نوع من الجمود، كرشه المنبعجة قليلا، ترتفع وتنخفض في حركة توافقية بسيطة، سترته الخضراء القاتمة منتفخة الأطراف، الجيب الأيمن أكثر انتفاخا من المعتاد، محشور فيه دفتر المخالفات القصير السميك، إشارة المصلحة فوق كل زر من أزرار سترته النحاسية، ولعلها أيضًا في أماكن أخرى خفية من جسده، وجهه مرخي القسمات.. بياض عينيه مشقق بخيوط حمراء متعرجة، شاربه متهدل، يطرق الخشب والزجاج بآلته الحديدية بلا كلل، يردد للفراغ: «تذاكر».. يتطلع إلى الطرقة الخالية التي يسير فيها وحده، ويعيد: «تذاكر».. صوته بلا حدة، كأن حباله الصوتية مجوفة..

على اليسار - في الطرقة الطويلة الخالية - صف من الدواوين.. في أولها ديوان بابه الزجاجي مطلي باللون الأبيض.. مكتوب عليه: للسيدات.. الجانب الأيمن تخرقه نوافذ بلا حصر.. يلقي عليها الغروب لونه الشجي الحزين، في حين تظللها المصابيح المنتشرة في السقف، مصابيح مطلية أيضًا باللون الأزرق، غير معروف تاريخ الطلاء.

عند كل ديوان تمتد يده لتزيح الباب، يئن الباب في ضعف، يتراجع منكسرًا، يكشف عن فجوة مستطيلة من الديوان.. يحشر فيها رأسه، يندفع إليه تيار الهواء الممضوغ بالكلمات، يتطلع إلى الموجودين بالداخل ولا يراهم، يحرك عضلات فكيه، تنبعث من خلالهما كلمة «تذاكر»، يحرك رأسه حركة أفقية يعبر فيها أيديهم الممتدة والمتداخلة، تكون الاشتراكات الحمراء والتذاكر الخضراء سحابة قرمزية خفيفة.. تشكل سهما بلا قمة.. يدخل عينيه، يرسل داخله شعورًا مريحًا، أنه قد فعل كل ما يمكن فعله، يومئ برأسه عدة إيماءات، يغلق الباب، يسير مترنحا إلى الديوان المجاور، تكون يده لأتوال قابضة على آلته الحديدية، وفكاه يتحركان مع كرشه نفس الحركة التوافقية البسيطة.

ثم لا شيء.. المنظر عادي ومكرر بطريقة مروعة، آلاف الفئات تتجمع.. تتكاثف في شيء واحد، صخرة أو شيء من هذا القبيل.. تتجمع فوق الصدر المضني..

جدار الديوان المقابل..

يرتفع من خلف المقعد الجلدي الأخضر، يكون سقفًا عجوزًا مقوسا، ينحني محتويا في حدته مصباحًا مدهونًا باللون الأزرق، في أطراف السقف نقوش عتيقة.. المفروض أنها وضعت للزينة، أو لكسر حدة رتابة الانحناء، في الوسط مغروس رف من القضبان الحديدية، تبطنها شبكة ممزقة، لونها كالح، ترك الذباب آثاره فوق أطرافها المدلاة.. تحت الرف إطار مستطيل، مصنوع من نفس مادة الجدار الخشبية، مطلي بلون بُني غامق، تقسمه عوارض خشبية بنية اللون إلى ثلاثة إطارات، في الوسط مرآة صغيرة باهتة تسلل السواد إليها من الأطراف، كون فوق سطحها العاكس أشكالا غامضة، في الإطار الأيمن صورة قديمة، معبد أثري، تختلط الظلال الكثيفة ببقايا الأعمدة الحجرية المتكسرة، رجل ذو جلباب أبيض يقف أسفل العامود، ضآلة الرجل توضح مدى ضخامة العمود، تحت أقدام الرجل تمتد أرضية جافة خلفها سماء بلا طعم، قطع سحاب حزينة، خلفها أرضية شاهقة البعد وبلا لون، الإطار الأيسر يحتوي على إعلان أصفر اللون مكتوب بالإنجليزية: هل رأيت الآثار العجيبة لحضارة المصريين القدماء؟ وبعد أن يرسم علامة استفهام ضخمة.. يضيف: «إذا لم تكن.. فأنت لم تر مصر».. ثم صف من أسماء البلدان والمعابد، في الوسط بقعة جافة لعلها أثر بصقه قديمة غير معروف كيف نفذت خلف هذا الزجاج..

على طرف المقعد..

المشمع الأخضر السميك مشدود بدقة متوترة فوق الهيكل الخشبي.. مغروس عند تقابل الأرجل مسامير صدئة، رءوسها مستديرة.. تترك فيما بينها مثلثين من المشمع غير المنتظمة الأضلاع.. فوق الطرف بالضبط جريدة ملقاة بإهمال.. جزء صغير منها في الهواء يتزايد على أثر اهتزازات القطار، مطوية ثلاث طيات غير متساوية، عند منتصف حافة الطية.. آثار عرق الأيدي الكثيرة التي تداولتها، عنوان الجريدة مخفي في أعماق الطية الثانية، تعبر الطية الظاهرة مجموعة متتابعة من العناوين، تتناقص في الحجم كلما هبطنا إلى أسفل.. في الأعلى، يعبر الطية العنوان الأحمر الضخم غير مخلف إلا كلمة «الضفة...» تحتها عنوان كلماته سوداء صغيرة نسبيا: «تهاجم وتقتل...» تحتها عنوان أكثر دقة وأكثر كلمات: «إطلاق النار على المتظاهرين أمام...»، في الطرف جزء فحمي اللون من صورة غير واضحة، مكتوب بجانبها خبر صغير، تهرأ الورق عندها فلم يعد من المستطاع قراءته..

بجانب الجريدة «راديو» صغير في حجم الكف له نفس اللون الأخضر، وإن كان يختلف عن لون المقعد، الراديو صامت، يبدو أنه ظل يتكلم حتى أفرغ كل ما في أحشائه وتوقف نهائيا، كان صامتًا.. صمت الموت الثقيل..

الطرف الآخر من المقعد..

طرق الكمساري الباب، لبث برهة ثم أزاحه.. كشف عن الفجوة المستطيلة، حشر رأسه فيها، صرخ: «تذاكر»، لم يجاوبه أحد، ضم حاجبيه في استغراب، نظر إلى داخل الديوان، رأى طرف المقعد، والجريدة المطوية، والراديو الصامت، رفع رأسه، ونظر إلى الوراء، اجتاز القطار محطة صغيرة قبل أن يقف، تكاثف الغروب، هبطت ذرات الليل سناجًا.. عاد يتطلع إلى داخل الديوان، ألقى المصباح الأزرق ضوءًا باهتا على الطرف الآخر من المقعد، كان الرجل العجوز راقدا، وحيدًا في الديوان الضخم البارد، منزيا فوق مساحة خضراء صغيرة، رأسه مائلة على جانب، ملتصقة بالزجاج والمصراع الخشبي، ذراعه اليسرى موضوعة فوق الفخذ اليسرى، ذراعه اليمنى مدلاة دون مستوى المقعد، كانت حلته من الصوف الإنجليزي القديم، لونها قاتم، غير معروف إن كان أسود أو رماديا، تسير فيه خطوط رفيعة متوازية، بياضها حائل، وفي قدميه حذاء ضخم، أسود لامع، قمته منبعجة إلى أعلى مقوسة معها مقدمة النعل، البنطلون يرتفع قليلا ليكشف عن الجورب المطوي، ملامحه متهدلة وشاهقة الصفرة، العين الزجاجية مفتوحة لأقصى اتساعها كأنما تريد أن تأخذ معها أكبر نظرة ممكنة، الفم أيضًا مفتوح في استغراب مفاجئ.

تشنجت ملامح الكمساري، قال: «تذاكر» بصوت خافت ضعيف، قبل أن يدرك ما حدث تمامًا، عرف أن الراكب العجوز ليس من ركاب الدرجة الثانية، بطيئًا، رأى البصاق، والورقة المفضضة، تطلع أيضًا إلى الترعة الغامقة خارج النافذة، حاول أن يقول شيئا غير كلمة «تذاكر»، يتشهد مثلا، يعلن أسفه بأي حركة مسموعة، لكن اخضرار المقعد، كان يملأ عينيه، يسد كل منافذ الرؤية، حتى اهتزازات القطار تحولت إلى نوع من الصمت الجليدي القاتل، رفع رأسه، أزاح الباب إلى مكانه، استند بظهره إلى الديوان، نفذت خلاله برودة الزجاج، أحس أنفاسه ثقيلة، تراخى على النافذة، تدلت يده خارجة منها، اهتزت من الهواء مثل بندول ساعة خربة، غرقت عيناه في محيط الظلمة.

١٩٧٠

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفراغ..
ثلاث حركات بطيئة

مربع أبيض.. مربع أسود..

مربع أبيض.. مربع أسود..

تتابع رتيب وسط الفراغ البارد، نغمة صامتة مكررة، تحت مستطيل الضوء الواهن تنام الرقعة الصغيرة ومساحة محدودة من الأرضية المحيطة..

الأرضية الغارقة في الظلمة واسعة، تقسمها البلاطات الملونة إلى نفس التتابع الرتيب، تشكيلات متساوية من المربعات والمستطيلات اللانهائية.. حولها تنتصب الجدران العالية، ملساء، خالية من أي نوع من أنواع الزينة أو النقوش، لونها غير محدد، وإن كان يغلب عليها الطابع الرمادي..

وبرغم التيارات الهوائية الباردة التي لا تني تعبر الغرفة، فإن مستطيل الضوء كان مازال يكشف عن الرقعة الصغيرة، والبيدق الضئيل وحيد تمامًا..

كان يقف في المربع الرأسي، يمتد ظله النحيل مكونا مساحة سهمية ترتمي فوق المربع الأسود في الصف الثاني الأفقي عند تقاطعه مع الصف الخامس الرأسي.. ويحتل أيضًا مساحة صغيرة من طرف المربع الأسود في الصف الأول الأفقي عند تقاطعه مع الصف السادس الرأسي..

دونما حركة يقف البيدق في نفس المربع، رأسه كبير بالنسبة لجسده الصغير، تلمع بخفوت، تنتهي فجأة إلى عمق رفيع، يتلوه عدة دوائر خشبية متوازية، تكبر كلما هبط الجسد إلى أسفل، تنتهي تمامًا لأن طول العمر وملامسة الأصابع وحبات العرق المتوترة أكسبته لونًا مجهدًا، خليطا من الاصفرار والتراب كان وحيدًا تمامًا.. والمربعات تمتد نفس الامتداد الخرافي..

مربع أبيض.. مربع أسود..

مربع أبيض.. مربع أسود..

في البداية البعيدة شعر بالسعادة، بعثت فيه الريح الباردة والضوء الواهن والوحدة الشاملة شعورًا مبهما بالانتصار، أمر مثير أن يسود الفراغ فجأة، القامات العملاقة، شراك الموت خلف كل مربع.. الظهر العاري والصراخ بلا جدوى، الموت المفاجئ بلا ثمن. كل ذلك اختفى.

كان الوزير يملك قدرة الحركة الخارقة، كان الحصان يصهل ويقفز حتى الهدف المجهول، كان الملك يقف في الصف الأخير، يدفع الجميع ويظل يبتسم نفس الابتسامة الغامضة.. كان.. كان..

كان ضئيلا في عالم شاسع، حروب طاحنة هو ضحيتها الأساسية، يلوحون له بالهجوم بالوعود، بالترقية، تقتله الابتسامات العملاقة، والخطط الطائشة، والعجز

عن المناورة والتراجع، وشعور الأمان يتمدد، يشمل الرقعة كلها، يتمدد ظل الأحلام التي طال موتها.. يصبح الخلاء مملكته ويصبح هو الملك..

كان عليه أن يتحرك..

نظر حوله.. فكر أنه لو سار للمربع الأخير فسيصبح وزيرًا.. لم يهتم بالأمر كثيرًا، فهو الآن ملك.. الأمر المهم حقًّا هو الحركة، إثبات القدرة على التواجد.. ببطء شديد أحاطته المشكلة، تراكمت مع التيارات الباردة.. لم يكن يعرف تمامًا، في أي الاتجاهات يسير! صحيح أنه في المربع الأسود في الصف الثالث الأفقي عند تقاطعه مع الخط الرابع الرأسي، ولكن من المحتمل أن يكون نفس المربع في الصف الرابع الأفقي عند تقاطعه مع الصف الثالث الرأسي، وبذلك ينعكس الاتجاه، من الجائز أيضًا أن يكون في الصف السادس الأفقي عند تقاطعه مع الصف الثالث الرأسي..

أحس بالحيرة، التفت أكثر من مرة، بدأ شعور الطمأنينة في التبخر، في التطاير مع هبات الهواء، تكاثفت ذرات الصمت.. زمان كان يعرف اتجاهه المحدد بالقطع التي خلفه، يتحرك اعتمادًا على حركتهم، عليه الآن وسط الوحدة الشاملة أن يختار اتجاهه المنفرد، كيف؟ كيف وهذا التتابع الرهيب؟!

مربع أبيض.. مربع أسود..

مربع أبيض.. مربع أسود..

يحط الفراغ، والبيدق يزداد ضآلة، لمعة الرأس تختفي، يحل بدلًا منها شحوب قاتم، لو أنه ظل واقفا لظل مشلولا، لمات دون أن يلمسه أحد، عليه أن يختار اتجاها واحدا يسير فيه، حول أربعة مربعات بيضاء، نفس التوهج والمساحة والأهمية، نفس نداء الرغبة، واحد منها فقط هو الاتجاه الصحيح وخلف الباقي يختفي عالم الرقعة المجهول.

ذهب شعور السعادة وعاد شعور العجز القديم، البالغ القديم، أين ذهب الجميع؟

كيف تركوه وحده؟

كان يجب على الأقل أن يخبروه أين الاتجاه الصحيح..

التيارات الباردة تزداد حدة، تأمل اتساع الرقعة، اتساع الأرضية، ملامسة الجدران الرمادية، تأمل المربعات البيضاء وحاول للمرة الأخيرة أن يختار الاتجاه الصحيح، ظل واقفًا والتيارات تبعث داخله شعورًا قاسيًا بالبرودة الحقيقية..

الحركة الثانية

فتافيت الصخور البنية المتهدمة تغطي وجه الخلاء حتى حافة الأفق، تكسوه نقابًا داكنًا أشبه بالدم الجاف، الريح ساكنة تمامًا، بينما تنزلق الشمس تاركة خلفها مزقا متناثرة من الشفق..

تمتد الفتافيت بلا حاجز.. لا صخور.. لا أشجار.. ترقب الموت النهائي للشمس حتى تغرق الظلام، لم يكن هناك إلا شيء واحد يبرز فوق استواء الأرضية، كانت هناك منضدة..

المنضدة الكبيرة تنصب في اتجاه الشرق، خشبها الأرو السميك يبدو عليه القدم والعراقة.. سطح واسع يرتكز فوق قوائم أربع، يمثل كل قائم رأس حيوان غريب مائل إلى أسفل، أعطته البروزات الخشبية نوعا من الشراسة المتربصة، ملامحه مجسدة بالحفر الغائرة المليئة بالتراب والتراكمات، قاعدة القائمة نفسها مقسمة إلى عدد من المخالب ترتكز بثبات..

السطح الواسع الباهت، ذهب معظم الطلاء اللامع، ترك خلفه تجاعيد منطفئة كالوجه المجدور، في أطرافه تتناثر النقوش الغريبة، تيمات متفرقة بلا نظام، آثار قديمة لمسامير مخلوعة، حفر غائرة لسكين، ليس لها أي معنى خاص، في المنتصف رسم ركيك لقلب بنفس الخطوط التقليدية، مقدمة عريضة منحنية يلتقي جناحاها في نقطة وسيطة متأخرة، وتتركز المؤخرة في نقطة حادة، منقوش داخله نفس التيمات الغامضة، بالقرب منه كون الطلاء المتساقط رجلا في وضع غريب، متداخل الأعضاء، ورأسه محني إلى الأمام أكثر من المعتاد، وعلى طول السطح العريض تتناثر فتافيت غريبة من الخبز، خبز جاف ناصع البياض..

أطراف المنضدة متآكلة بعض الشيء، تتكون من عدة ثنيات خشبية تنتشر فيها مساحات زخرفية موحدة، في بعض الأجزاء يبدو بطن الخشب الأصفر واضحًا، خليط من آثار أسنان فئران، والحفر الغائرة التي يصنعها السوس الضال..

سكون تام، الشمس تنزلق في بطء شديد، نقاب الدم الجاف يزداد قتامة، وكل شيء يزداد ثقلا، أشبه بالقنوط.

تمزق صوت ضئيل، آلة خافتة، كانت المنضدة تتحرك، على وجه التحديد، كانت القائمة اليمنى من ناحية الشروق هي التي تتحرك، بدأت المسامير التي تثبتها بالسطح العلوي في البروز قليلا، قليلا.. حتى أصبحت في الخارج، تناثرت على الأرض خمسة مسامير، واحد منها فاقد الرأس، ظهر فراغ رفيع بين القائمة والسطح، ولد احتكاك الأخشاب صوتًا أشبه بالدمدمات، بالكلمات المتآكلة، قاومت لبرهة ثم سقطت متهالكة فوق فتافيت الحجارة البنية، دون صوتها المكتوم حتى ذاب على حافة الأفق، في الحال، مالت المنضدة بزاوية حادة في اتجاه القائمة، استطال ظلها قليلا في اتجاه الشرق، تباطأت الشمس، كفت المنضدة عن الاهتزاز المتوتر.. لم يستمر السكون طويلًا..

ارتفعت الغمغمة المتآكلة من ناحية القائمة اليسرى تجاه الشرق، تناثرت المسامير، خمسة، كونت نفس الإيقاع المتداخل، طالت مقاومتها، ظلت متشبثة بالسطح دون أن يظهر الفراغ الرفيع إلا بعد مدة، استمرت حركة الاحتكاكات المتوالية، كأنها ألم غامض يمور داخل المنضدة، تناثرت قطع اللحام القديم، ظهر الشق الرفيع، دوّى صوت سقوط القائمة المكتوم، صوت صارخ.. تهاوت مقدمة المنضدة، اصطدمت

من ناحية بالأرضية ومن الناحية الأخرى بالقائم الأيمن، تمزق السكون نهائيًّا، توقفت حركة الشمس، توقف أيضًا التجمع الأخير لمزق الشفق المتهرئ..

صوت الدمدمات الخافت، القائمة اليسرى تتقلص، مسامير خمسة تتناثر، يكوّن السطح على الفور زاوية حادة تسقط دونما أي مقاومة، يرتج طرف السطح الفارغ، يتراجع قليلا للوراء، والقائمة اليمنى تجاه الغرب تدفع الألواح في إصرار..

تبدأ الألواح نفسها في التفكك، سقط السياج الذي يحمل النقوش الزخرفية المتتابعة، تفكك من الجوانب - في فترات مختلفة - إلى مستطيلات خشبية مليئة بالتجاعيد، اختفت بين الفتافيت البنية، ظهرت بين الألواح شقوق نحيلة، امتدت من الطرف الشرقي للطرف الغربي في تواز ثابت، اتسعت ببطء، تحولت إلى أخاديد غائرة، احتفظت فيما بينها بنفس النسب المتساوية في المنتصف، تمزق رسم القلب الغائر إلى ثلاثة أجزاء غير متساوية، تحول إلى نوع من التجاعيد الصماء، امتلأ السكون بأصوات التأوهات المبتورة، والألواح تتفكك في بطء قاتل، تنسحب من فوق القائمة المنتصبة وتتهاوى في تراخ عاجز فوق الأرضية، ستة ألواح منفصلة، وأصدر صوت سقوط اللوح الأخير أنَّة طويلة أشبه بالشهقة الأخيرة، تمايل القائم في الفراغ، اهتز عدة هزات، أحاطته الألواح المتراكمة، منعت سقوطه، ظل منتصبا، مائلًا.. مثل شاهد قبر مجهول..

ببطء، تناثرت الأصوات، ذابت.. زحف السكون مرة أخرى.. تمطى في الخلاء الموحش، بدأت المزق الوردية في التجمع، ولمست الشمس أطرافها وهي تنزلق نهائيًّا خلف الأفق..

الحركة الثالثة

كانت البنت الصغيرة تكتب كل يوم على جدار الرخام: «أكره الكذب».. وعندما نأكل من فتات خبز الأكاذيب اليومية تجلس وحدها - في المساء - وتبكي..

كان الولد يقرأ الكلمات فوق حائط الرخام، ويشعر بالوحدة الموحشة، وتتحول طرقات الكلية الطويلة إلى سراديب داخل جبل الثلج، كانت النجوم تنام على الرصيف..

حكى لها عن حلم رهيب يلاحقه بإصرار، كان دائمًا يلهث وهو يرتدي قميصًا ملونًا بالدم، قال لها إن الحلم يتكرر دائمًا.. دائمًا.. قالت له إن الدم في الأحلام علامة خير، قالت له أيضًا إنها تخشى النوم، ودائمًا يدهمها إحساس الموت المفاجئ؛ لذلك تنام ويدها حول عنقها..

كانت تكتب على الجدار: «لتسقط كل الأشياء التي تتألق بشدة»..

فتح الباب ببطء، أطل على قاعة المحاضرات، شاهد الأشكال الخلفية لرءوس الطلبة والطالبات، والمدرج ينحدر إلى أسفل، يرتمي تحت أقدام منصة الأستاذ، كان فكاه يتحركان بسرعة متزايدة، يروح ويغدو، يكتب كلمات باهتة فوق السبورة الخضراء، يدق المنضدة ويلوح بيده في حركة مسرحية..

في الصباح ظل الضباب مخيما لوقت متأخر، وعندما أزاحته الشمس الواهنة، ترك كل شيء خلفه مبللا.. مشبعا بالرطوبة والقنوط.

أمام النافورة المعطلة، توقف طويلا.. تأمل أسراب النمل المتتابعة، والعطن الأخضر المتناثر، والمياه الراكدة، تذكر أنه لم يتناول إفطاره، لم يتناول عشاءه، كان هادئًا لدرجة تقارب الشلل، لم يكن يشعر بالحزنٍ، لم يعد الحزن كافيا، تحول إلى نوع من الاختناق، توقف في حلقه الضيق، كلٌ شيء: الضربات السريعة المفاجئة، الهمسات الجانبية، السيارات.. نشرات الأخبار، والضحكات المبتورة، وكان مبنى الكلية أبيض تمامًا، ترك الضباب فوق جدرانه آثارًا كالبكاء.

أحب الشمس.. أحبا الشمس، ولما سارًا معًا في حضنها شاهدتهما آلاف العيون، حاصرتهما آلاف الأكاذيب الصغيرة المنمقة، كانا يخافان الليل، ولما تكلما، تلوثت حروفهما بالظلمة، تلوثت بالخوف من اليوم الآتي..

في المشرحة - شبه الخالية - أدرك أن الألم المتكرر يولد الفزع، شعر بطعم اللحم النيئ الممزق في فمه، أثقلته رائحة الفورمالين، تحسس الصدر المفتوح، القلب الوردي الصغير ممزق إلى ثلاثة أجزاء، يكشف عن تشابك لحمي قاتم، يصعد من الأورطي وينحدر في جلال آفل، عاودته الرغبة في الصراخ بصوت عالٍ في الهواء كالحيوانات الجريحة، لم يكن حوله أحد، وكان السكون ثقيلًا.. ثقيلًا..

كانت صغيرة.. ورقيقة.. لكنها لم تكن ساذجة لدرجة كافية، وكانت تعاني من الغربة وتخشى الموت المبكر، آلمه أنه لم يستطع أن يحبها لحظة من السعادة.. آلمه أنها دائمًا.. دائمًا.. تدفع وحدها الثمن، آلمه أيضًا أنه عندما ركع أمامها وشاهد عذاب القديسين في عينيها.. وقال لها إنه على استعداد لأن يهبها عمره، وأنه فقط يبحث عن لحظة ضئيلة، مثل رأس الدبوس، يبدآن منها معًا، لم تصدقه..

على سطح الكلية كان وحده أيضًا، توقف مستندًا بركبته على السور، تطلع حوله في انبهار صامت، خُيل له أنه لم ير مثل هذا القدر الهائل من السماء والزرقة، والأفق، ينحني خلف الامتداد الأخضر.. وقطع السحاب تتباعد، والنهر الضيق أمام الكلية يتحول إلى منفذ خانق، والسمان يلهث، رفة جناح أخيرة قبل أن يموت في براري الشمال، الأتوبيسات تمرق في خفوت، والناس بعيدون.. بعيدون كأنهم حلم، وعندما تغيب الشمس يتغير لون المياه، تتحول إلى رصاص منصهر..

رماد - رماد.. الأيام.. والذكريات.. والأغنية تقول:

بلانش ديبوا.. بلانش ديبوا.. لماذا تهوين وأنتِ بهذه النشوة؟

بلانش ديبوا.. مسكينة بلانش ديبوا.. أنتِ تحترقين يا صغيرتي..

غاصت عيناه في التقاء الخضرة والزرقة، تمنى لو أنه قادر على الحركة، على الطيران، على الهروب إلى مكان أكثر دفئا وأقل توحشا، أن يمسك يدها ويعطيها بعض الأمان، يحدثها عن الرجال والنساء الذين يرقصون رقصة الموت ولا يكفون عن ممارسة الحب، والبراكين التي تتلوى تحت قشرة الأرض الجهمة، والنيازك والشهب، تتوهج سريعًا، تحترق سريعًا.. وأهداب العيون.. وعيون البنادق،

والمراعي الكثيفة الخضرة، والجزر الضائعة، وأزهار البانسيه والذكريات الذابلة، وأحلام الصوفيين القدامى، والأنهر المختفية في تشابك الحلفا، ونجم الميلاد المتألق الحزين الذي كان يراه دائمًا في عينيها، وعن الحب بلا خوف، وعن السعادة بلا ثمن..

والرغبة بلا اشمئزاز..

كان السطح خاليا، كانت الطرقة خالية، ومرعى العشب، والغرف المغلقة ذات اللافتات السوداء، والسلالم المتعرجة، ومناضد الكافتيريا الملونة، كان وحده تمامًا.. يشعر بالرغبة الحادة في البكاء..

١٩٧١

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

حكايات قديمة

الحكاية الأولى: علاء الدين

عودي يا قرة عيني..

أنا علاء الدين التعس، في ظهري آثار دامية منذ الأيام التي كنت أجمع فيها الحطب، كانت الأشواك تغرس في جلدي دون أن أجرؤ على التأوه، نفد الزيت من مصباحي وأخذت أتعثر في الظلام، خلعت خرقة الصوف الخشنة، وتعود جسدي على الدمقس، وعلى الشرب من كئوس الفضة، والنوم على حشايا النعام، لكن ماذا يجديني والصفقة كلها قد أصبحت خاسرة؟

في وسط الصحراء أخلع عباءتي، كل أقنعتي، أقف عاريا فوق الرمال، ومازلت أناديك، أيا قرة عيني.. لماذا تركتني فجأة؟ قالوا إنك عشقت بائسًا حقيرًا، شحاذًا كان مقيما على باب قصري، أعطيته لفحة من جمالك فاستيقظ الآدمي الذي كان بداخله، عشقت قاطعًا للطريق فأصبح درويشًا متيمًا بجمالك، عشقت المغربي العجوز الذي أغواني ثم أصبح من ألد أعدائي، تعشقين الجميع ما عداي، لماذا أنت مختلفة إلى هذا الحد، كل نساء الدنيا يعشقن اللآلئ، ويدثرن بالحرير، ويحلمن بسكنى القصور، فلماذا رفضت أنت كل هذا عندما جاء؟ ويلي منك.. كأسي فارغة حتى من المودة، والصمت كالجبل، وأنت طيف رائق كالنجوم، نابض كتردد الأنفاس، كالمد والجزر.. ويلي منك، وأنت بعيدة، ومن سهام الثلج ومن عيون المغاربة القاسية.

عندما انتفض المصباح من بين أصابعي كانت صرختك أنت، والملح في جوف المغارة يكون أشكالًا غامضة تحمل نذير الوعد والمكتوب، وأنا أحك جدار المصباح المعدني الصدئ بجنون المحرومين، حذرتني، أدرك ذلك، ضحكت لحظتها، يا بلهاء، من ذا يرفض قصر السلطان، يرفض تاجه وصولجانه مهما كان الثمن، لم أكن مخطئا لهذه الدرجة الرهيبة، ما يدريني أن العطن يرقد خلف كل شيء، وأن الأشياء البراقة دائمًا زائفة، ما يدريني أن اللعبة لا تخصني، وأنني تعس كزهر الصبار..

بالأمس حاول الخدم سرقة عقوك الياقوت والزبرجد، انتهزوا فرصة نومي وأنا أحلم بك حلمًا قلقًا، وعندما علمت صلمت آذانهم، كنت أخفي خلف خوفهم خوفي، وخلف بكائهم بكائي، وأمي العجوز تصرخ خلف النوافذ، أحضرت لها أعظم أطباء بغداد، كانت تغافل الجميع وتبتلع قطع الذهب وفصوص الماس، حاولت إفهامها أن كل شيء ملكنا، حقنا المشروع فلنحاول قليلا يا أمي أن ننسى ذكرياتنا المرة، لكنها ظلت تغافل الجميع حتى امتلأت معدتها، وكان زيت المصباح يتناقص، أيامي التي مضت.. أيامي القادمة.. لحظات بعتها بثمن بخس، أيا قرة عيني ألم تكوني مخطئة عندما ذهبت بعيدا لهذا الحد؟ كنت في حاجة ملحة لكلمة منك، تقولين عد، تقولين أطفئ ذبالة المصباح، أنزع الأقنعة عن وجوه المغاربة، دع المغارات للخفافيش وعشاق الظلمة، لكنك ضننت عليَّ بالكلمة الأخيرة.

مرة أخرى أمسك المصباح واستدعي الجني، يعلو الدخان ويتكاثف حتى يشكله أمامي، عندما يحس بوجوده وأنه يمتلك حريته تتسم تصرفاته بالوقاحة، قال في ملل:

- نفدت كل أمنياتك يا سيدي.. لماذا تصر دائمًا على استدعائي؟!

قلت: كلا.. بقيت رغبة أخيرة لم تقدر على تنفيذها..

- أعرف.. أن أجدها.. ولكني بحثت في كل مكان.. وأرسلت لك بدلًا منها عشرات النساء.

- لا أريد إلا هي..

- ما بالكم أيها البشر.. لا أحد يقنع بما يملك، ولا يرضى بما يوهب له.

- كل ما طلبته هو امرأة عشقتها.

- ومن قائل إنني قادر على قلب امرأة، خاصة إذا كانت كارهة، هناك أسوار لا أتخطاها..

- أيها الجن الخائن.

على قبر أمي وضعت قبضة التراب الأخيرة، تذكرت كم عاشت مسكينة وماتت مسكينة، كانت تأخذني في أحضانها، وتتزع - بدفئها - برودة ليل الغابات من عظامي، أحسست بالأشواك الدامية في ظهري برغم الفراش الحريري، بالعري والجوع، فقدت كل شيء، خسرت كل شيء، أي شيء بقي ولم نبعه بعد؟

على الصخرة البعيدة في نفس المكان.. كان المغربي العجوز جالسا يحق فيَّ وأنا أخوض أحراش العظام النخرة، قدمت له المصباح الذي طاردني طويلًا للحصول عليه، قلت له:

- أيها المغربي الحكيم، ها هو المصباح الذي تسعى إليه، ماذا لو ألغينا الصفقة وعدت أنا إلى أسمالي الخشنة؟!

- ما يوجد في المصباح الآن هو مجرد دخان.. أنا لست مسئولًا عن روحك التي بعتها..

- صفقة خاسرة، كل ما فيها زائف.

ضحك بصوت هادر، اختفى، وماذا كسبت أنا؟ مازلت وحدي في المسالك المجهولة، تركت القصور والعبيد والمصباح لكنني لم أبتعد كثيرًا، تحيط بي قبضة الأرض الصلبة، تراقبني الوجوه المنهكة، تحدق بيأس أحيانًا، وبشماتة أحيانًا أخرى، عشرات الوجوه التي عرفها.. أهل وأصدقاء وخلان.. كلهم معلقون فوق قمم الأشجار، يموتون ببطء.. قالوا:

- خدعنا السحرة، أعطونا المصابيح وسلبونا كل شيء..

حاولت الهرب.. أن أتفادى قدري الزائف، وعيون المغاربة تترصد من خلف التلال، وأنت يا قرة عيني تركتني، أخذت بشارات خلاصي، تركتني أقضي ديني الفادح وحدي.. أهتف باسمك ولا أجد سوى الصدى والموت.

الحكاية الثانية: معروف الإسكافي..

رائحة الحي كما هي.. لم تتغير.. دكانه مغلق وبيت مهدم.. من الغريب أنهم ما زالوا يذكرون وجهه.

قال له الجيران: ماتت زوجتك.. البقية في حياتك.

لم يعد في الحياة ما يستحق.. همهم متبرمًا دون أن يشعر عليها بحزن أو أسف..

قالوا: أين كنت؟ قد غرقت في البحر.

انفجر ضاحكًا، ما زال أهل الحي القديم على حالهم.. الحارات الضيقة امتدت إلى عقولهم، أصبحت أفكارهم اللزجة كالطين، تجمعت حوله حلقة من الأطفال والنساء، ثم جاء الرجال بعد ذلك، وقف وسطهم لا يستطيع مغالبة ضحكاته، ضحك ناعم له متعته الخاصة.

- تسألونني أين كنت؟ وأين يمكن أن أجد الكلمات التي تصف وتعبر عن العالم الذي رأيته خارج هذه الحارة؟ تخيلوا شمسًا أكثر وداعة، وظلمة رقيقة، وأحلامًا بلا كوابيس..

حدقوا فيه مذهولين، سار فساروا خلفه، لم يكن سيره لاهثا متوترًا مثل أيام الجوع القديمة، كان أشبه بالانسياب، رقصة بسيطة كاهتزاز البنات يصحبها إيقاع خافت، ساروا خلفه، كتلة شاحبة ملوثة بالطين وبقايا الذباب، تهامسوا:

- إنه معروف الإسكافي.. ياالله.. لم يمت.. أصبح يضج بالحياة..

شعور السعادة الخالصة ما زال طازجا في أعماقه، والحي القديم يكشف نقابه المتهرئ، الذكريات الرطبة، بيوت الأصدقاء القدامى، المقهى وجدرانه الملوثة بالدخان، المشربيات المتداعية والعناكب تحط في كل ركن، وهو لا يكف عن الكلام، تذكارات عذبة لا تتناثر من فمه وتسقط فوق الأرض الحارة، بل تذوب على لسانه مثل قطع الحلوى..

- لا يوجد براغيث.. ولا نقود.. ولا حراس.. ولا نكت بذيئة بالطبع..

نسوة على أبواب البيوت يتطلعن نحوه، شفاه جافة، تحت الجلد تتشابك التفرعات الزرقاء، تساءل حائرًا، هذا الضمور كله ولا تزال فيهم بقية من حياة؟ أكانت زوجته هكذا؟ كان لسانها سليطا، دائمة التبرم والصراخ، وذات ليله أنشبت أظافرها في وجهه فلم يستطع أن يوقفها، تركها ورحل على ظهر مركب مهددة بالغرق، ولكنه لم يغرق، وصل إلى تلك الجزيرة المسحورة التي لم يتصور وجودها، ما حسب أنه سيعود أبدا، رحل غريبا وعاد غريبا، لكن صفاء العوالم المجهولة كان

يغمر أعماقه، عالمه القديم كان مرسوما فوق النعال البالية، والحالة الضنك والشكوى بلا جدوى، ولسان زوجته لا يهدأ..

- هناك أرض للجميع.. نساء للجميع.. وفي كل ليلة رقص وغناء حتى الصباح، لا فقراء، لا أغنياء، كلهم على نفس الدرجة من الرضا والسعادة، طوال هذه المدة لم أشاهد شرطيا واحدًا ولا شحاذًا واحدًا.

عبر بوابة الحي، هذه المرة ظلت البيوت صامتة، لم يفتح أي باب ولم يخرج إنسان، فوق العوارض الخشبية رأى رقعا من الشمع الأحمر، ملتصقة فوق كل مزلاج بحيث لا يستطيع أهل البيت الدخول أو الخروج، معلق بجانب كل واحد منها بجانبها إعلان مكتوب على رقعة من الجلد، أغلق بأمر الوالي لسداد الضرائب، أغلق بأمر الوالي لأنه تحدث فيما لا يعنيه، أغلق لأنه جأر بالشكوى، عصى الأوامر، عرف أكثر مما ينبغي، عاد يقول:

- لا أثر هناك للبرد.. للجوع.. للبؤس.. أو لتعسف الحكام..

ارتفع إيقاع الدمدمة، كأنما تنفجر من داخل الشقوق، تتخلق من ركام الرطوبة والشحوب، التفت خلفه في فزع، شاهد كتلة الرجال والنساء ترتعد في شراسة محمومة، من خلال الأسنان الصفراء والعيون المنهكة تنفجر التأوهات مثلما الجرحى المحتضرين، بدأ يشعر بالخوف، كان قد فقد هذا الشعور لكنه عاد يداهمه الآن أشد عنفًا.. تقدم أحد الحرس، لا يدري من أين برز فجأة، قال له في غلظة:

- إذا كان الأمر كما تقول.. لماذا عدت إذن؟

تطلع إليه بنظرة غائمة، قال ببطء: لأنهم لا يغفرون أبدا..

قال الحارس ساخرًا: تمامًا كالحال عندنا..

ساحة الحي.. السبيل المعطل، المسجد ذو المئذنة المكسورة.. الطين. الرجال الهزالى ما زالوا - كما تركهم في الزمن القديم - متناثرين فوق الأرصفة في تعطيل أبدي، ينتظرون الفرج الذي لا وجود له، يداهمهم حراس السلطان كل لحظة، يسلبونهم كل شيء حتى ماء الوجه، انتصبوا في خور، انضموا للباقين، فطن فجأة للكابوس الهائل، ماتت الذكريات وسط الغمغمات الجائعة.. قال:

- الأمر هناك كان مختلفا، لقد اكتشفوا خطيئتي الأولى.. وربما الأخيرة.. كان كل شيء مباحا ولكني أردت ذهبهم وأحجارهم الثمينة ونفائسهم الغالية، أردت أن أستأثر بكل هذا لنفسي، عاودني الحنين أن أعود فأشتري تلك البيوت المتداعية، وأتزوج واحدة من هاتي النسوة الضامرات.

أي أحلام تستيقظ، أي أحلام تموت، يتدافعون حوله في يقظة مفاجئة، لا نهاية لدمدمة الحشود العاطلة، والنسوة اللاتي يبعن أنفسهن، والأطفال نصف المبصرين، نصف العقلاء..

- وأنا أخطأت مرة واحدة.. (ولأول مرة تعلو صوته نبرة من المرارة)، مرة واحدة فقط.. ولكن كم مرة أخطأ الجميع.. إنها أنتم خطيئتكم أيضًا..

الوالي، الضرائب، الحراس، السجون، الذباب والبراغيث.. أخطاؤنا الصغيرة القاتلة والوجوه الشاحبة تدمدم، والأيدي الضارية تمتد.. توسل:

- أنصتوا قليلًا.. أنا إسكافي.. وعندما تتلوث القدم، يعني أن هذا الحذاء مثقوب، أنصتوا.

لم يعد يرى شيئًا، العيون بقع حمراء متصلة، الأسنان الصفراء تزأر، شاهد زوجته تتلوى وسطهم، شاهد النعال القديمة، وطريقه الطويل، وأيام وحدته، وخطيئته الصغيرة، وأدرك أنه مهما صرخ فلن يبالي به أحد.

الحكاية الثالثة: زينة النساء!

قبل الغروب هبطت «زينة النساء» من بيتها الصغير وسط المدينة.. ألوان ثيابها باهتة وعلى وجهها نقاب كثيف.. منذ مدة طويلة تركتها جاريتها وبدأت هي تستمرئ الحزن والوحدة..

السماء بعيدة وقطع السحاب مثل زبد البحر، شوارع بغداد الضيقة مزدحمة، المصابيح الصغيرة المعتمة منذ أول خليفة لم يوضع فيها فانوس واحد، عربات فارهة تعبر الطريق بجنون تتبعها موجات طويلة من الاحتجاجات العاجزة، كانت الأصوات تخفت، تذوب، ووقع السنابك يتلاشى، أرجل المارة المتداخلة في كل اتجاه، التجار الذين يعرضون بضائع الهند والسند، البيع والفصال، كل ذلك دون أي صوت، ليس أكثر من حفيف خافت، وفجأة أحست «زينة النساء» كأنها تسبح في النهر، تغوص وحدها في أحضان دجلة الصافية، عارية تمامًا، وفي القاع كانت آلاف القواقع والطحالب والمخلوقات الغريبة تراقبها في انبهار خالص، وعندما كانت تصعد برأسها أحيانًا كانت ترى السماء صافية كبطن النهر، يحيط بها إحساس تام بالنقاء حتى إنها للمرة الأولى لم تخجل من جسدها العاري، لم تخجل أن يراها أحد.. كان الماء يمتص كل الرغبات النزقة، كان باردًا ورقيقا لكنه لا يبعث على السعادة، لا يوحي إلا بشيء ما كالشجن العميق الممتد.. «زينة النساء» خلف نقابها الكثيف تبكي نفسها، وشوارع بغداد تضج بالحركة ودون صوت..

أمس بلغت زينة النساء عامها الثالث والعشرين، مرت لحظة منتصف الليل وهي منزوية في ركن صغير بالحجرة، لم تجرؤ على الحركة، أو إضاءة مصباح واحد صغير، قالت لنفسها للمرة الأولى:

- لم يعد هناك جدوى من الإحساس بالزمن.

قال رجل عابر - يبدو أنه كان غريبا عن بغداد - هه يا فتاة.. هه.. وانصرف سريعا. وقفت وسط الميدان أمام تمثال الخليفة الأول، كانت تتألم من تلك النظرات التي تحاصرها، تذكرت أن نظرة حبيبها كانت تختلف تمامًا، تلك العينان الصغيرتان البراقتان المتعبتان التي لا يخفت توهجها، تطل منها نفس النظرة الطفولية الغريرة، كأنما تكشف العالم للمرة الأولى وبطريقة جديدة، من خلال وجهها يتلمس بأطراف أصابعه جبينها الناصع ويهتف في اهتمام بالغ:

- هل أخبرك أحد ما.. أن جبينك أحلى من إشراقة الفجر؟

تضحك.. أخبرني بذلك شاعر أبله ذات مرة.. يضحك ويزيح شعرها النافر خلف أذنها، وفي المساء - أي مساء غريب - كانت تجلس وتتلمسه وتكتشف في اللحظة أنه مصنوع من نوع رقيق جدًّا من الجلد والعظام، يشف حتى الموت، تتلمسه وتخشى أن تجرحه.. أن يجرحها.. وعندما أخبرتهما الجارية أن العيون السوداء ترصدهما في السوق وخلف المشربيات وأمام البيت، كان يبدو شاردًا وحزينًا فوق العادة.

لم تستطع قراءة الكلمات التي فوق قاعدة تمثال الخليفة الأول، حدقت في كل اتجاه.. هذه بغداد، أجل.. مدينتنا الغريبة وحلمنا الكئيب، كم مرة أخذها في يده وطافا معًا في كل الأماكن، انظري، هذه بغداد، طرق طويلة ومتشعبة كخيبة الأمل، مزدحمة بالوجوه الخجلى من الشمس، والنهر إذ يعبر المدينة، كم هو خائف وجل، والمشعوذون في أطراف الأزقة يحملون بالفردوس والمهدي المنتظر، تموت الأشعار مختنقة وسط روائح المسك والكافور والمر، ويباع لحم العالم الأبيض في السوق الواسع بدنانير بخسة، آه يا بغداد، عندما تعطين النخاسين أكبر الأوسمة، وتمنحين الفرصة لأشرس الحراس، لا يبقى هناك مكان للحب.

وجدت زينة النساء نفسها وحيدة، لا ندري كيف اختفى زحام الناس، عبرت النهر إلى الجانب الغربي من المدينة، لم يكن فيها إلا قلعة موحشة ترقب المدينة في غضب متحفز، تنتظر اللحظة التي تنشب فيها أظافرها الحجرية، كانت زينة النساء تتضاءل، والسور يكبر، ويبتلع السماء، وفي الأعلى كان الحراس يرقبون مقدمها، يتوقفون عن السير، يتأملون لحظة عبورها الانسيابي الحزين، يتهامسون.

- هذه هي.. تأتي في موعدها مثل كل يوم.. هذه الحمقاء، تعتقد أن شاعرها ما زال موجودًا عندنا..

- أرجو أن يدوم هذا الاعتقاد.. لأنها تأتي دائمًا محملة بالطعام والدنانير.

- يمكنها أن تختصر ذلك وتذهب لمقابر الصدقة.

تواجهها الحجارة الضخمة في تحد، تخمشها كالطيور المفزوعة دون صوت، كانت أحلام اللحظة قد ماتت، وأصبحت تدرك أن المساء قد أتى، وأن الليل يربض خلفه، وأيام انتظار باردة لا تنتهي..

الحكاية الرابعة: السندباد..

أجراس البصرة تدق تكريمًا لسندباد، قاهر البحار والعواصف بعد أن عاد من رحلته السابعة، لكن الذي يدقها هو أشهر مزايدي السلطة، صوته الأجش الذي يعرفه كل التجار يدوي..

- اللاأونا.. اللادوي.. اللاترو ا.

في ميناء البصرة الواسع ترسو سفينة السندباد، سفينة وفية، مخر بها عباب البحار وقهر تشنجات المد والجزر، تقف مزدانة بالأزهار والرياحين تكريما لرحلتها الخالدة، وعلى مقدمتها لافتة صغيرة سوداء مكتوب عليها بالطباشير كلمة واحدة.. «للبيع» وفي الجانب الأيمن يقف سندباد.. وفي الجانب الأيسر يقف البحارة، في الوسط يقف تجار السلطنة يتهامسون في ود، والمزايد الشهير أمامهم تمامًا، يدق الجرس ويقسم على إيقاعاته مقاطع الكلمات..

- فرصة عظيمة، أعظم سفينة شاهدتها السلطنة، سفينة سندباد العظيمة..

همهم التجار بصوت مسموع:

- سفينة مستهلكة، نخرها السوس، يجب أن تفك وتباع أخشابا بالقطاعي..

والسندباد يحدق في الوجوه كأنها ترتدي أقنعة غريبة، كأن ما يجري مجرد لعبة هزلية طال أمدها، والحارسان - واحد على كل جانب - يمنعان حركته كلما حاول التملص..

- نبدأ بأربعمائة دينار.. هه.. من يزيد؟

تبرم التجار.. زعق أحدهم..

- ولا أربعمائة درهم.. ماذا يجدي شراء السوس؟

زعق السندباد يسب التجار، رفيقة عمره الغالية وجدت قبل أن توجد السلطنة، ووقف هو خلف دفتها قبل خلق العالم، زعق فيه المزايد:

- اخرس خالص.. دعنا لشغلنا «التفت ناحية البحارة..».. هيه.

تقدم «السنان» رئيسهم.. رفيق رحلاته السبعة.. قال:

- لابد من البيع.. نريد مرتباتنا..

دق الجرس.. ثلاثمائة إذن.. مائتين، سفينة في حالة جيدة. ومستعدة للإبحار في الحال.. قال أحد التجار وكأنه تورط:

- مائة وخمسون.. يلَّا.. هه..

دار المزايد ببصره في الحاضرين.. قال في أسف: فقط!

لم يرد أحد.. وافق السنان بهزة من رأسه.. وقع المزايد عقدا باسم التاجر، كان العبيد قد نزلوا قاع السفينة في الصباح وأخرجوا محتوياتها، أشار لهم المزايد فأحضروا أمامه أربعة صناديق ضخمة، والجرس يدق..

- الآن.. جاء دور المحتويات..

كتب السندباد التي جمعها في كل أسفاره.. مرة أخرى يزعق ولا أحد ينصت.

كانت هذه رحلة عمره الحقيقية عندما حلم ذات يوم بجنة الأرض الموعودة، أحضر كتب الفلسفة من بلاد اليونان، والحكمة من فارس.. والسحر من الهند.. والقانون من

بلاد الروم.. كتب قديمة وصفراء، لكنها حصيلة آلاف البشر الذين تعذبوا وصلبوا وماتوا.. زعق المزايد: مائة دينار. انفجر التجار ضاحكين. قال أحدهم محاولًا تمالك نفسه:

- يا رجل.. هذا مجرد ورق «دشت».

استطاع السندباد الإفلات من أيدي الحارسين.. توقف أمام بحارته القدامى.

- أتوسل إليكم.. تذكروا ما فعلناه معا.. نحن رفاق العمر..

قال السنان:

- كان ذلك قبل أن يصيبك الجنون.. كنا دائمًا نعود بالغنائم والذهب لكنك هذه المرة ملأت السفينة بالتفاهات..

- كل مرة كانت زيفا.. هباء.. رحلتنا الأخيرة.. كانت من أجل الحقيقة، ألم تفهموا بعد؟

دق المزايد الجرس.. قال ساخرًا:

- الحقيقة بلا قيمة يا سيد.. تمامًا مثل قطرة الماء المالح.. خمسون دينارًا.. ثلاثون دينارًا..

أعاده الحارسان، وافق أحد التجار متبرما على شراء الصناديق بعشرة دنانير، ونجح المزايد البارع في أن يزيد خمسين درهما، تأمل السندباد وجوه بحارته، ربما للمرة الأولى، رفاق الليالي الصعبة، جاءوا عبر البلاد البعيدة وربط القدر المجهول خيوط المصائر ببعضها البعض، عبر المحيط وبحر الظلمات، والآن تطل من عيونهم نظرات اللامبالاة الباهتة، الباردة كالموت، وضع العبيد عدة صناديق ضخمة وأخذوا يخرجون محتوياتها، آلات من الحديد والزجاج غريبة الشكل، نثروها بلا مبالاة، آلات لرصد الفلك والنجوم، أسطرلابات ومزاول، قياسات للملوحة والأعماق، للحرارة والضغط معامل زجاجية كاملة للتقطير ولتخليق المواد، أنابيب وخزانات خزفية..

والجرس يدق كالنعيق..

- فرصة عظيمة.. آلات غريبة، لزوم الحواة والمشعوذين وكل شطار السلطنة.

تقدم تاجر وقال بحسم:

- اسمع لا تهول.. إنها لا تخرج عن كونها قطع من الحديد وسأشتريها بسعر الكيلو..

رن.. رن.. أقمشة غريبة ليست من الصوف ولا من القطن، رن.. رن.. نباتات في علب زجاجية خاصة.. ركام هائل من الأشياء التافهة لا تستحق عناء البيع والفصال، هبطت الدنانير إلى الدراهم، إلى أنصاف الدراهم، ووجوه البحارة لا تلين.. رن.. رن.. رن.. ويصيح المزايد:

- آخر قطعة.. علبة من القطيفة مطعمة بالفضة..

زعق السندباد: كلا.. صرخة مبحوحة وجريحة..

- دعوها لي.. إنها تخصني وحدي..

تطلع إليه المزايد بازدراء، فتحها، كان بداخلها وردة حمراء جافة ورسالة صغيرة مكتوب عليها بعناية.

ألقاهما بلا مبالاة وعرض العلبة للبيع وحاول سندباد الإفلات.. أمسكه الحراس، أسرع الآخر ودهس الوردة الجافة والرسالة المطوية في الطين، والسندباد يصرخ ثم يجهش في بكاء طويل متصل..

وبرغم ذلك لم تفِ المزايدات إلا بنصف المتأخر من المرتبات..

١٩٧٢

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

البوار

أكتب عن أبي، عن السوق، والثلاثاء الأخير، وعيون محاسن، والذكريات الميتة..

أبي.. نظرة خوف متوترة وخطى سريعة، الصباح بارد، الطريق موحل والشمس لم تشرق بعد، وأنا ألهث خلفه، أحاول اللحاق به أو النظر لوجهه المحتقن.. والشارع الجانبي - الذي يؤدي إلى شارع السوق الرئيسي - يوشك على الانتهاء.. لم نتبادل كلمة واحدة منذ خرجنا من البيت.. كان هذا يوم الثلاثاء الأخير «عز الموسم» كما يقولون، تصادف أن كان عطلة من المدرسة، ومنذ الأمس وأنا ألح على أبي - بمساعدة أمي - في إقناعه بالذهاب معه.. مثل الأيام الماضية عندما لم يكن الشتاء بهذه البرودة..

هتف واحد من الصنايعية فجأة:

- ياه يا معلم منسي.. حمولة القماش ثقيلة على كتفي.. تمهل قليلًا.

تمهل أبي مرغما، كان خلفنا اثنان من الصنايعية، يحملان كومتين كبيرتين من قطع القماش، كان الصنايعي العجوز هو الذي يتألم، منذ أن ولدت وأنا أراه خلف «النول الخشبي».. يحسب الوقت والأيام تبعا لإيقاعات «الدف» و«المكوك»، نظر أبي نحوه، تقدم ليحمل عن كاهله بعض الأقمشة، لكن العجوز تحرك مبتعدا، لم يرضه أن يشاركه المعلم الكبير - أبي - حمولته، قال في وهن:

- كله يهون يا معلم منسي.. ربنا يوسع علينا في السوق ونرجع خفاف بعون الله..

ظهرت دكاكين الشارع الرئيسي، اختلطت دمدمات الباعة الخافتة مع أنفاس الصباح، تغيرت ملامحهم القديمة، وامتلأت الدكاكين بالغرباء، قال أبي دون أن يوجه الكلام لأحد:

«أصبحت المحلة لا تطاق».

أخذت أتنفس بصوت مسموع، وكانت الدكاكين الواسعة المملوءة بالألوان والمرايا قد فتحت أبوابها، بعثت رائحة السوق التي أعرفها جيدا، بعض الطمأنينة في داخلي، التفت أبي نحوي في حدة:

- اسمع، لا أريد مشاغبات اليوم.. فاهم؟

تأخرت خطوة وقد فوجئت بتهديده.. قال العجوز مهونًا:

- صلِّ على النبي يا معلم.. نهارنا فل..

التفت أبي نحوه، قال له ببعض الود: أصبحت المحلة غريبة، وأصبح الواحد فيها غريبا والله.

كان مكان أبي في نهاية الشارع لا يغيره أبدا. كذا لا يغير جلبابه الصوفي الأسود، يطويه في عناية وتحفظه أمي في قاع الدولاب حتى يوم السوق، كأنه إحدى علاماته المميزة، اشتعلت الحركة، من الشوارع الجانبية للسوق بدأت وجوه «المعلمين» في

الظهور، كنت أعرف الكثيرين منهم، طالما جاءوا إلى أبي في القاعة الرطبة التي بها الأنوال وجلسوا يتناقشون معه في مشاكل القطن والحرير والصنايعية المشاغبين، تعالت همهمات الصباح الممطوطة: «صباح الخير».. صباح نادي.. الشتا نايم.. آه والله النومه طولت.. الحرير نار.. والقطن ضعيف.. واليدوي ربنا يستر عليه.. صباحنا لبن على كل حال..

تتقارب الخطى والأنفاس، تتشابك أطراف الأحاديث المبتورة، والجماعة تزداد، زوج الصنايعية مازالا يسيران خلف أبي، كل واحد يحمل كومته، خلف المعلم نونو يسير ثلاثة، خلف المعلم عبده اللجهوري أربعة، إبراهيم سلطان ثلاثة، عبد المنعم واحد فقط يسير بجانبه، في حين يحمل هو بقية القطع، الدسوقي حامد خمسة بأكملهم يأخذون حيزا كبيرًا من الشارع، عبده فراس لا أحد، يحمل كومته الصغيرة فوق ذراعه ويمضي صامتا تمامًا.. و.. و.. «الأحوال كالمكوك.. مرة شرق.. ومرة غرب.. وربنا يستر..»، كانوا مهمومين، يحاول كل منهم أن يقرأ في عين الآخر مصير اليوم، على الجانبين فتحت الدكاكين الواسعة أبوابها، أفواه فاغرة، مملوءة بالأقمشة الغريبة الألوان، الرخيصة السعر، أقمشة لا يكف المصنع الجديد عن إنتاجها، ولا تتوقف ماكينات الحديد عن صنعها، لا يعرف عمالها الوهن والتعب كما يحدث خلف الأنوال الخشبية، كان أصحاب المحلات يتطلعون نحو صف المعلمين وهم ينحدرون نحو سوق اليوم الغامض في سخرية صامتة، مساء أمس، ظل أبي جالسا أمام المصباح الغازي، يحاول عبثا التوفيق بين الأرقام النحيلة المتضاربة، تراقبه أمي في إشفاق عاجز، يضع القلم ويتنهد في حيرة وكنت ساعتها أشعر بالخوف والبرد، كان ثمة شيء يقترب.. يشعر به الجميع ولا يستطيعون دفعه..

في نهاية الشارع أمام بقالة عم «فتح الله» الكبيرة، وضع الصنايعية الأقمشة على الرصيف، فرش الصنايعية الأجولة القديمة، تبادل أبي مع عم «فتح الله» تحية سريعة وشعرت أنا بالسرور فجأة.. تأوه العجوز مرة أخرى فحمل أبي الأقمشة عنه وبدأ يرصها في صفوف رأسية، وظل الصنايعي الأصغر سنا صامتا كأنما يعاني من لحظة غضب دائم، اقتربت من الدكان المترب، كانت الأرفف مزدحمة لدرجة خانقة، حدق فتح الله فيمن خلف نظارته السميكة..

- إزيك يا محمد؟

كان يأكل بعض مخارج الحروف.. سألني:

- في سنة كام؟

- رابعة..

همهم في رضا، أقبل جرسون القهوة مسرعا، تأمل صف الصنايعية والمعلمين، فرك يده وهو يتظاهر بالسرور.

- مجبورون بعون الله.

لم يعد أبي يطيق يوم السوق أيضًا، كان يشعر أن دكاكين التجار الجدد لا تني تتكاثر، تحاصره من كل ناحية، بقع لونية فاقعة وأقمشة رديئة الصنع يشغلها مكن أصم، تجذب الأقدام الغريبة من كل القرى المحيطة بالمحلة، وتزدحم بهم طرقاتها الطينية، أذهب للمدرسة وأعود من المدرسة، أدور حول صهريج المياه العالي، يخيل إليَّ أنه يميل مع حركة السحب، كأنه على وشك السقوط، تذوب آخر الشموع في كوات مسجد «التوبة»، وتتوسل أمي عقب كل صلاة: افرجها من عندك يا كريم.. ولا تبتعد سحابة الخوف الرمادية الداكنة..

يومها لم أكن أدري لماذا أصبح يخشى يوم السوق بعد أن كان يتلهف شوقا لقدومه، لم أدر ماذا يعني وجود المصنع الضخم في شرق المحلة، وعشرات الماكينات التي تهدر دون توقف، ولازالت الأنوال الخشبية في غرب المدينة تتابع كالأنين..

انتهى المعلمون من رص الأقمشة فوق الرصيفين المتقابلين..

والجرسون يتحرك حاملًا صينية الشاي، الصنايعية جالسون جنب الجدران أكثر خوفًا وبلادة.. وأنا أفكر في محاسن..

- عم فتح الله.. أين محاسن؟

رفع عينيه من فوق الكتاب الأصفر الضخم، قالت لي محاسن إنه يصنع منه أحجبة ويتلو بعض التعاويذ، بعدها يستطيع مخاطبة الجن مباشرة..

- ستأتي حالا..

لمحني أبي: يا ولد.. كف عن مضايقة الرجل..

ازداد ارتفاع الشمس، بدأت قطع القماش الحريرية في اللمعان، تمهل العابرون في فضول لا أكثر، ولم يظهر أي واحد من التجار المعروفين، تبادل المعلمون النظرات من فوق الأرصفة، عاد الجرسون بعد أن جمع الأكواب الفارغة وبها بقايا التفل.. قال محمد نونو فجأة محاولًا المرح:

- أنتم تعرفون التجار.. ناموسيتهم كحلي..

ضحكوا في خشونة مختنقة.. بدأت الحركة في منتصف الشارع والأرصفة راكدة، توقف بائع الحلوى أمامنا، عجوز لدرجة كبيرة، يمسك عصا طويلة كلما هزها أصدرت قمتها صوتا خشنا في حين تنزلق قطع الحلوى إلى أسفل.. كان يهزها في وهن ويزعق بصوته الأسيان:

- حلاوة زمان..

يهتف عن شيء غريب فائت، ماضٍ لن يعود، كان حلوا وكان سكرا، وأبي يحدق فيه بجمود جريت نحوه، أعطاني قطعة كبيرة من الحلوى وأبي يتحدث عن غلاء الحرير والقطن مع بقية المعلمين عن الغلاء الأخير في أسعار الحرير، يشير إلى شرق البلد حيث يرتفع المصنع، وتفتح الدكاكين الجديدة لتلتهم السوق وتترك لنا المرارة، واليدوي يموت... اليدوي يموت يا عالم دون أن يسأل عنه أحد.. تعبر

السيارات الضخمة شوارع المدينة، تتوقف قليلًا حتى يشم الجميع رائحة الماكينات الجديدة.

في القاعة الرطبة - التي يملكها أبي - خمسة أنوال خشبية، يجلس خلفها خمسة من الصنايعية، من الصبح حتى أذان المغرب، وكل يوم تتجمع أمام أبي خمس قطع وتفرد خمس أيادٍ أصابعها، تطلب حق عرقها ورزقها اليومي، أجل، أصبحت المحلة لا تطاق كما يقول أبي، زمان لم نكن ننتظر شروق الشمس.. زمان.. قبل الحرب، كان أبي يمتلك عشرين نولا، وكان التجار يظلون في انتظار ممض فوق الأرصفة الخالية حتى يأتي أبي بالقطع فيتخطفونها في لهفة، وكان بائع الحلوى العجوز لا زال يكرر في صوت مشروخ: حلاوة زمان.. وخيل لي أنني سمعت أبي يتحسر في صوت خافت.. هتف:

- محاسن..

لم يسمعني أبي لحسن الحظ، ابتسم الصنايعي العجوز في خبث، ابتسمت هي ابتسامة صغيرة، كانت تلبس فستانا ملونا وعصبة رأس حمراء، ووجهها حلو فوق العادة، كان أبوها مشغولا بجمع كبير من زبائن السوق، يناولهم حاجاتهم في سرعة حتى يعود إلى الكتاب..

قلت في لهفة: إزيك يا محاسن؟

نظرت إليَّ دون اهتمام كبير، بدت غير مبالية، كانت أكبر مما رأيتها منذ خمسة شهور، حاولت أن أكلمها بسرعة عن المدرسة، عن الإجازة الأخيرة عندما كنا نلتقي كل ثلاثاء، زعق أبوها:

- لماذا تأخرت يا بنت؟ أووف.. من دلعك..

نظر أبي إليَّ بحده، اختفت محاسن خلف كتلة الزبائن، هتف الصنايعي العجوز وهو يلمس كتف أبي:

- معلم منسي.. بص.. المعلم محجوب التاجر..

قال ذلك في لهفة وفرح، اشرأبت الأعناق، نبضت الأرصفة بالحركة، اتجه التاجر نحونا، أدركت أنني قد أفلت من مراقبة أبي، أصبح باسما وقد تبخرت نظرة الخوف من عينيه، فتح ذراعيه مرحبا:

- أهلا معلم محجوب.. أهلا بسيد التجار.

كان سمينًا رخوا، يمسك مظلة واسعة لها قبة خضراء، تناثرت حوله التحيات من بقية المعلمين، كل يحاول أن يجذب انتباهه، فركوا أيديهم في أمل وبدأ أبي والتاجر جولة مرتبكة بين مقاطع الكلمات: «كيف الأحوال؟.. ماشية.. الأولاد؟.. عال. محمد ابنك؟ محمد ابني في المدرسة؟.. عال عال».. قال الرجل فجأة:

- إنها جولة سريعة، كنت أريد أن أعرف حال الأسعار..

غاصت ابتسامة أبي..

خف زحام الزبائن بعض الشيء، محاسن تتحرك بسرعة، زمان، كنا لا نكف عن الضحك واللعب معا، تقول أمي إن البنات يكبرن بسرعة أكبر من الصبيان، ومحاسن قد كبرت فجأة لكنها تبتسم كلما تقابل وجهانا، زجرها أبوها: همة يا بنت.. ثم انكفأ فوق كتابه الأصفر.. كان أبي يتحدث للتاجر متوترا:

- أنت عارف جَودة شغلنا يا معلم محجوب.

ضحك التاجر بجفاف: وأنت أدرى بالزمن يا معلم منسي..

عبر محمد نونو الرصيف، وقف خلف أبي استعدادا لمؤازرته، أخذ الصنايعي الصغير يلقي نظرة متحفزة على الجميع، واقترب التاجر وأخذ يتحسس الأقمشة الحريرية، زحفت أصابعه في نعومة كأنها ثعبان، أسرع الصنايعي العجوز، تناول أول قطعة وفردها بطول ذراعه، تألق لمعانها الخاطف وهو يهتف:

- صلِّ على النبي.. عيب واحد على رقبتي..

لكن التاجر ظل غير مهتم وفي عينيه نظرة باردة ومحايدة.. فرغت محاسن من آخر زبون، مالت على الحاجز ترقب ما يحدث، ابتسمت لها وأنا خائف، تلصصت العيون في فضول مقيت، تذكرت فجأة الصنايعي الصغير وهو يغني خلف النول بصوته الغريب..

- آه.. قلبي على اليدوي..

ضاع زمن اليدوي..

أبي حزين ولكنه صلب ولن يرضخ، نونو يوافقه تمامًا، أقعى الصنايعي الصغير في الركن وهو يتأمل الجميع - حتى أنا - في تحفز، قالت محاسن: أبوك زعلان.. سيطق من الغيظ، رفع أبوها رأسه من على الكتاب وزعق فيها: لا يوجد زيت، منذ الأمس وأنا أقول لك، لا يوجد زيت.. قالت: طيب، واعتدلت..

قال أبي: بالعقل يا سيد التجار.. هذا السعر لا يغطي ثمن الخامات، لا القطن ولا الحرير ولا الصباغة.. فما بالك بعرق الصنايعية وخلافه؟

تكلم التاجر في برود: ولا تزعل نفسك.. بين البائع والشاري...

زعق أبي: يفتح الله.. هه.. يفتح الله..

لم يرض أبي أن يكون لقمة سائغة للتاجر، كان واضحا أن بقية التجار قد أرسلوه لجس النبض، ولقتل السوق إن كان هذا ممكنا، انضم أكثر من معلم لأبي.. وقفوا خلفه في صمت.. أخذت محاسن صفيحة الزيت، قالت لأبيها: سأذهب للمخزن، كنت أنا حزينًا من أجل أبي وأود الابتعاد، قلت لها: هل آتي معك؟.. هزت رأسها بالرفض، تراجع التاجر، تمهل قليلًا لكن النظرات المتحفزة حاصرته، ابتعد متمهلا، التفت أبي إليهم:

- لم يكن ممكنا القبول بالسعر الذي يعرضه.. هذا خراب مستعجل..

انزلقت من فوق الرصيف، ركضت عبر الشارع حتى أصبحت خلف محاسن، كانت تسير متمهلة هي تحمل الإناء المستطيل: محاسن.. وحشتيني.. لم يغب عني نبرة السخرية في صوتها: أنت في سنة كام؟ هتفت في حرارة: رابعة يا محاسن.. رابعة.. حملت عنها الصفيحة حتى وصلنا للمخزن، كان مجرد دكان واطئ في منزل نصف مهدم، ضحكت دون سبب: متى ستكبر؟ ضحكت في جفاف.. قلت وأنا أنفخ صدري: سأكون موظفًا كبيرًا.. هكذا يقول أبي..

توقفت، وضعت يدها في جنبها وقالت:

- هل أنت متأكد أنك ستبقى في المدرسة، معلمين اليدوي انتهوا، غدا سيخرجك أبوك من المدرسة ويذهب بك للمصنع..

كان هذا كذبا، كنت متأكدًا أن أبي سيظل خلفي مهما كانت الظروف، لم يكن يريدني أن أكون صنايعيًّا بائسًا، أو عامًلا في المصنع الذي يكرهه، قلت غاضبا:

- هل رأى أبوك هذا في كتب السحر؟ لن يكف عن هذه الكتب الصفراء حتى يذهب بصره..

كنت غاضبا حتى إنني فكرت في إلقاء الصفيحة والانصراف، سيبتسم الصنايعي العجوز ويدهش عندما أخبره أنها فتاة قليلة الأدب، كانت أكبر مني بثلاثة شهور فقط، فتحت باب المخزن، هبت رائحة ثقيلة، خليط من الزيت والصابون والعفونة، قالت في رقة مفاجئة وهي تتناول يدي:

- لا تزعل.. ادخل.

ظللت واقفا قرب الباب حتى تعودت عيناي على الظلمة. شاهدت صفوف الصناديق المتراصة، وأجولة المكرونة والحبوب، وبراميل الزيت اللزجة، وضعت محاسن القمع ذا الطرف الطويل داخل البرميل وسألتني فجأة: هل أنت خائف؟ نفيت ذلك بشدة، بدأت أحكي لها بصوت متعثر، عن المدرسة والمدرسين.. والسائل ينزلق في أرضية الصفيحة بتراخ، تتصاعد رائحته المميزة، وعين محاسن تلمع، قالت وهي تمسك يدي:

- اسمع.. فوق هذه الصناديق.. صندوق صغير من السكر النبات..

قلت في سرعة ذكرتني بكتاب المطالعة: أنا أحب السكر النبات..

- سأحضر لك قليلًا منه..

صعدت، حملقت مبهورا في ساقيها البيضاوين وسط ظلمة المخزن، هتفت: محاسن.. تطلعت إليَّ دون أن تتحرك.. أزاحت طرف الفستان قليلًا، قالت.. رجليا حلوين، مد إيديك، ضحكت بطريقة غريبة، ارتعدت وأصابعي تزحف جلدها، كان ناعمًا ودافئًا، رأيت وجهها، خيل لي أنه من الجائز ألا تكون هذه محاسن.. قد تكون فتاة أخرى تشبهها، هبطت فجأة من فوق الأجولة، احتك جسدها بجسدي وأحسست بصدرها البارز يضغط عليَّ، كيف كبر ثدياها هكذا فجأة؟! أحسست بأنفاسها الحارة

تحوط وجهي، لم تعطني السكر، كانت ملتصقة بي تمامًا، أخذت يدي وضعتها فوق صدرها، وعاودت السؤال بنعومة:

- هل أنت خائف؟ هه.. سأعلمك لعبة جديدة.. لا أحد يعرفها عندكم في المدرسة..

خرج أصحاب الدكاكين من داخل محلاتهم وتجمعوا في منتصف الشارع، تجمع بعض تجار الدكاكين، كانوا يرتدون ملابس المصنع الملونة، ساروا صفًّا طويلًا أمام أبي وبقية المعلمين، وجم أبي عندما رآهم، ولكنهم لم يلتفتوا إليه، توقفوا وتظاهروا بالحديث مع بعضهم ثم انفجروا في الضحك الصاخب، قال أحدهم في صوت عالٍ بحيث يسمعه بقية المعلمين:

- بكم المتر عندك يا معلم؟

رد عليه آخر بنفس الصوت المرتفع: صوف وحرير.. ولَّا بفتة ودمور؟

كان أبي يحتقر النوعين الآخرين من الأقمشة، كان يعتقد أن المصنع قد أهان صناعة النسيج عندما أنتج هذه الأقمشة البالغة الرخص والرداءة، تطلع لنهاية الشارع لعل التجار الحقيقيين يعاودون الظهور، لم يعد ثمة أمل، كان محجوب هو الأول، وربما يكون الأخير، اختفى التجار القدامى وبار الموسم.

- ألف ندامة على الذي اشترى دون أن يعرف كيف يبيع.

كان جسد محاسن دافئا، كتلة من النار وسط رطوبة المخزن، طرف لسانها أحمر لامع أدخلته في فمي وأخذت تدور به، كان ريقها حلوًا، لم أعد في حاجة للسكر النبات، تأوهت وهي تضغط جسدي بشدة، أحسست بأجولة المكرونة وهي تغز ظهري، قالت..

- صدري حلو.. هه؟

أدخلت يدي في فتحة ثوبها، كنت أريد أن اعرف من أين جاء هذا البروز، كان صلبًا وناعمًا وقمته دقيقة، ارتجف جسدها بشدة لم أتوقعها، قلت لها مفزوعا: الزيت يا محاسن، أسرعت ترفع القمع، كانت بقعة كبيرة من الزيت تفترش الأرضية في رخاوة والضوء يتسلل شحيحًا من شراعة الباب، واجهتني محاسن مرة أخرى، كانت مصممة على ممارسة نفس اللعبة التي لم أكن أتقنها كثيرًا، بدأت هي أيضًا باكتشاف جسدي، لم أكن أدري ماذا يمكن أن تبحث عنه، كان جسدها هو الذي يمتلئ بالأسرار، أما أنا فلا شيء، هكذا كانت تقول، لا شارب لك، ولا شعر يكسو صدرك، كانت تريد شخصًا آخر متغيرًا، مثلما تغيرت هي، حاولت أن أنزع يدي من داخل صدرها، كان ساخنًا كأنه سيحرق أطراف أصابعي، أبقت يدي وهي تهتف: قلبي.. آه يا قلبي.. أحسست بالفرح وأنا ألمس البروز الناعم.. قالت أمي.. إنهن يكبرن سريعًا ويصبحن أكثر ليونة، ضغطت بشدة لكنها لدهشتي لم تتألم..

كنت خائفًا على أبي، وجهه ممتقع، ورقبته بارزة العروق وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة، زعق حين رآني.. أين كنت؟ حسبتك تهت في هذا السوق الواسع، اجلس أمامي ولا تتحرك. كوّن تجار الدكاكين دائرة صاخبة، أخرج أحدهم قائمة طويلة

بأسماء الأقمشة وأخذ يتلوها بصوت مسلوع، تجمع حولهم المارة، تقلب الصنايعي الشاب فوق الرصيف، بصق العجوز وهم بالاندفاع نحوهم، جذبه أبي للخلف، قال وهو يحاول الإفلات:

- أنا لهم يا معلم.. أنا لهم..

شعرت بالرغبة في الضحك، كان عجوزًا مهدمًا لا يتحمل لمسة، وأبو محاسن يرفع حاجبيه مستغربا يصرف الزبائن في حركة ضجرة ليعود للكتاب.

كانت محاسن تعض وجهي وتلتهم شفتي، أشعر ببهجة غامضة، قالت سأتزوج قريبا، تقدم واحد أفندي إلى أبي، أنا فقط بحاجة للتمرن، كنت أحس لعابها وأنفاسها وسخونتها المتزايدة، أخرجت يدي من صدرها ولففت ذراعي حولها، لم أدر ماذا أفعل بالضبط.. كنت فزعا.. تحسست قطع العظم البارزة المتتابعة في ظهرها، ونعومة فخذها، ورأيت صرتها فشهقت في انبهار.

تجمهر المعلمون حول أبي.. زعق المعلم اللجهوري:

- يا معلم منسي.. كان من الممكن أن ترضى بالسعر الذي عرضه علينا ولو مؤقتا..

قال أبي مذهولًا من غبائه: ولكن الصنعة ستنهار، لن نستطيع بعد ذلك أن نبيع بسعر التكلفة، أنا وأنتم.. كلنا سوف ننهار..

تقدم الصنايعي الشاب، بدا أنه على وشك الاشتباك فورًا، قالوا في أسف:

- قبلنا أو لم نقبل.. مضى اليوم.. ولا شيء..

صرخ محمد نونو كأنما اكتشف الحقيقة لتوه:

- لابد أنه اتفاق بين كل التجار، يريدوننا أن نركع أمامهم، وبعثوا بمحجوب حتى يجس النبض.

كانت الفكرة رهيبة ولكنها منطقية، تراجعوا فزعين، أدركوا فجأة ضراوة الخدعة، تكاتف الجميع، المصنع القادم من الخارج، الماكينات التي لا تتوقف، التجار الذين خذلوهم بعد هذا العمر، كلهم تكاتفوا حتى يهبطوا باليدوي إلى الحضيض، زعق أبي:

- أبيع هدومي.. ولا أبيع بهذا السعر..

فجأة، أمسكت محاسن رأسي وجذبتها نحوها، أحسست بثوبها ينسدل على وجهي، خفت من الظلام، ومن الرائحة التي اقتحمت أنفي، صرخت: عيب يا محاسن، ابتعدت عنها محاولا التقاط أنفاسي، ولكن وجهها كان محمرا وأنفاسها لاهثة، كانت غاضبة، دفعتني بقوة ففقدت توازني، سقطت فوق أجولة المكرونة، نهضت وهي تزعق: يا ابن الكلب، يا عيل يا صغير، قلت وأنا على وشك البكاء: أهو أنتِ بنت ستين كلب.. تشبثت بشعرها. تأوهت، أخذت تضرب ضربات طائشة، كنت مغتاظا جدًّا، قالت: غدا سأتزوج رجلا حقيقيا، لست في حاجة للعيال، روح لأمك، بدأت تخربش وجهي بأظافرها الحادة، حاولت أن أحمي نفسي، تحررت مني. وجهت لي

ضربات سريعة حانقة، أخذت أتراجع أسقط وأنهض حتى أصبحت خارج المخزن، جلست جنب الجدار وأنا أرتعد، لاحظ الصنايعي العجوز جروحي ولم يتكلم، حاولت إخفاءها عن أبي الغاضب، بدأ المعلمون يتجولون فوق الأرصفة كالحيوانات المحبوسة، أصبح الشارع خاليا من الناس تقريبا والمعلمون يزفرون، يرمقون بعضهم ولا أمل، رأيت محاسن عائدة من المخزن تحمل صفيحة الزيت فوق رأسها، انزويت في الجدار أكثر..

في منتصف الشارع.. ظهر التاجر محجوب، ولم يدر أحد كيف ظهر. ضحك نفس الضحكة الجافة وهو يقول:

- العقل زينة الرجال، موعدنا الثلاثاء القادم.

ظل أبي صامتا، انسحب محجوب وهو مازال يضحك، أشار أبي للصنايعي العجوز حتى يجمع الأقمشة، ضرب الصنايعي الشاب الجدار بقبضته، نظرت محاسن إلى وجهي المحمر، وجدتها تبحلق فيَّ بوقاحة وازدراء، أبوها منكفئ فوق الكتاب الأصفر سعيدًا متمتعًا..

حمل كل واحد من الصنايعية نصيبه، تأوه العجوز في انكسار ورأيت أبي يختلج كأنه ينزف، نهضت، سرت بجانبه دون أن يلحظني، كان جلبابه الصوفي الأسود يمتلئ أحيانًا بالهواء، وتذكرت وجه أمي وهي تطويه وتضغط على قاع الدولاب، وظل بقية المعلمين فوق الأرصفة يبحلقون فينا ببلاهة، ورأيت الشارع خاليا.. طويلًا.. طويلًا.. وبيتنا بعيد، والظهيرة برغم الشمس باردة لحد كبير..

١٩٧١

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

رحلة المعلم منسي وولده محمد

١

في أحد أيام شهر فبراير الكثيرة الريح، قرر المعلم منسي وولده الذهاب إلى بلدة منية غباش، مركز المحلة، إنقاذا لما يمكن إنقاذه..

كان قطار «الدلتا» يواصل سيره الدءوب، يتبدد صوت صفيره وسط الخلاء، تهتز عرباته الصغيرة، فوق القضبان البالغة النحول، ويتوقف حتى عند أصغر القرى، فتحت الحقول صدرها، وظلت بيوت المحلة تتضاءل وتغوص في قاع الخضرة، ومداخن المصنع الضخمة تطل من فوقها، ترصد المدينة وترصد الأب وكومة القماش بجانبه. تغزه في شماتة وتنعي هربه، ومحمد جالس أمامه يرقب حزنه في خشية..

زعق الكمساري، اشتبك في نقاش صاخب مع أحد الفلاحين، لم يكن المقعد مريحًا وشعر بألم في مؤخرته. ضرب فلاح - متغضن الوجه منقوش اللحية - كفا بكف وقال:

- هيّ حصّلت.. الحكومة بذات نفسها تحجز على البهائم، وأيمانات المسلمين هذا خراب بيوت..

اختلج وجه الأب، دائمًا تلاحقه هذه الكلمة «خراب».. اهتزت العربة كأن ألواحها على وشك التفكك، وبدت الشمس للحظة من خلف الغيوم فتوهجت الأقمشة الحريرية وسط عتمة العربة كابتسامة حلوة، لم يكف الكمساري عن الحركة، لاحظ محمد عرجه الواضح، وبالرغم من زعيقه وشجاره المتواصل شعر محمد بالرثاء من أجله، اختفت المحلة نهائيًّا وأصبحت الخضرة قاتمة، أشار محمد نحو الكمساري وقال لأبيه هامسًا:

- انظر كيف يعرج.. هل يتألم؟

قال الأب بزهق: يووه.. البلد كلها تعرج..

هبت موجة من الهواء من خلال زجاج النافذة المكسور، ضم محمد ياقة قميصه، كانت أمه تخشى عليه من نزلات البرد، ولكنه كان يظل جالسا لساعات طويلة في القاعة الرطبة، يتأمل الأنوال الخشبية وأقدام الصنايعية صاعدة هابطة فوق «الدوس» لترسل الحركة لبقية أجزاء النول، كان لابد أن تظل القاعة رطبة حتى لا تجف خيوط الحرير وتتقصف بسهولة، لذا يصاب الصنايعية بنوع من الزكام الدائم صيفا وشتاءً، سأله الأب فجأة:

- هل سيكونون في انتظارنا؟

هز محمد رأسه مقطبا حتى يقنعه بصدقه..

- ما اسم أبوه؟

- عم جبريل..

كان هذا يوم الثلاثاء، والفلاحون عائدون من سوق البندر صامتين، ترمقهم السلال الفارغة والأوعية الفخارية في حسرة، انفض السوق مثل كل مرة، يوحي الصباح بالمكسب ولا تأتي نهاية اليوم إلا بالخسارة، أقفاص الجريد كانت مسكونة منذ ساعات قليلة بدواجن مذعورة منتوفة الريش. تربية الشهور الطويلة، وسوق البندر لا يشبع ويعود قطار الدلتا حاملًا فوق مقاعده المتكسرة أرقام الحسبة الخاسرة. جنب الباب جلس فلاح شاحب بجانب زوجته، فاردة حجرها وهو يحصي عدة «برايز» قديمة رثة يلقيها ثم يعاود التقاطها، هكذا طوال الطريق، غير مصدق أنه باع واشترى وعاد دون أن يفهم من صفقة البندر شيئًا، كان الأب يعرف من نظرات العيون، حسرة كل ثلاثاء، يعرف شمس يومه الكاذبة وهي تضخم الظل، ثم يعود آخر اليوم وقد خدعه التجار، وأكل حقه السماسرة.

تنهد الأب: لم يعد هناك إنسان طيب..

تمهل الكمساري، وضع يده على صف القماش وهو يبتسم بمكر، تبادل مع الأب نظرات خاطفة وقال فجأة وهو يلوي عنقه:

- عيوب يا معلم؟

شوح الأب بيده غاضبا: صلِّ على النبي.. دا قماش يدوي فرز أول..

ضحك الكمساري وأخذ يعرج مبتعدا، ضم الأب القماش جنبه وتمتم مفجوعا: آل عيوب.. آل..

كانت الدلتا تسير على حافة ترعة ضحلة، والمياه الراكدة مثقلة بالطين وجذور النباتات، خشي محمد أي انزلاق مفاجئ، رأى جثة حمار منفوخ البطن فأشاح متقززًا، تناول الأب أول مقطع من القماش. قربه من وجهه وهو يضغطه في حنان، تأمل نقوشه الدقيقة وهي تضوي في رقة كأنها المرة الأولى، كأن النقوش حروف كتابة، تحكي عن أيام «المسادي» ودق الدفوف، وعرق الصنايعية البارد، وحواري صندفا، حيث الطريق إلى البيت، الممتلئ بالطين، وعمال اليدوي والأطفال النحاف، وقف الكمساري بعيدًا يرقب نزيف الأب الصامت.. خفت ضجة الركاب، وأصبح صرير العجلات كالأنفاس المتحشرجة، قال الأب فجأة:

- تذكر يا محمد، غدًا سوف تكبر، لو راح اليدوي قول على الدنيا يا رحمن يا رحيم، لأن هذه صنعة الكون منذ الأزل، وربنا ذكرها في القرآن..

رفع الصنايعي الشاب يده بالمكوك وقال بصوت عالٍ:

- شوف يا معلمي.. الله الله على الجد..

كان الأب جالسًا في ركن القاعة يجهز لفات خيوط الحرير، يفردها على اتساع ذراعيه ليزيل ما عليها من النشا، كان بقية الصنايعية منكفئين على الأنوال، قال الأب بهدوء وكأنه يعرف ما ينوي أن يقوله:

- يا محمدي، اليدوي في محنة، لا يجب أن نتخلى عن كار أجدادنا بهذه البساطة.

ولكن الصنايعي رد بقوة:

- لا مؤاخذة يا معلمي.. وماذا أفعل في أولادي ولقمة العيش مُرة، سأذهب للعمل في المصنع.

تناول المحمدي جلبابه وخرج من خلف النول.. تباطأت بقية الأنوال التسعة حتى توقفت، رفع الصنايعية رقابهم النحيلة جدًّا، وأطراف أنوفهم الحمراء دائمًا، وأخذت الكلمات الباترة تتساب بين العوارض الخشبية، هكذا.. أوقف المصنع أول أنوال الأب..

قال الكمساري محاولًا أن يصالح الأب:

- لا مؤاخذة يا معلم، كنت أمزح، هذا أحسن قماش والله.. طالما تمنيت أن أصنع منه جلبابا لساعة العصاري.. سيحدث إن شاء الله.

ابتسم الأب راضيًا، الآن ينطلق كل معلمي المحلة الصغار، يحملون على أكتافهم كل أنواع الأقمشة اليدوية، إلى بلاد الله الواسعة، يحاول كل منهم أن يبعد ظل الثلاثاء العقيم، يخرجون الأقمشة المكدسة من قاع الدواليب ومن تحت الأسِرّة، طويلة هي أيام البوار، لكنْ هناك دائمًا زبائن جدد، وبلاد لا تقام فيها مصانع، وثلاثاء أكثر بهجة، وتمنى الأب: بس لو ربنا يسهلها! قال محمد بسرعة: تشتري لي بنطلون قصير، قال الأب: على عيني يا محمد.

أصبح النول الواحد ثلاثة أنوال عاطلة، تهدلت خيوط الحرير وفر الصنايعية تحت إلحاح صفارة المصنع، اهتز القطار فجأة وأوشكت قطع القماش أن تسقط، تماسك الأب بحافة النافذة وارتمى محمد عليه، سقط قفص ضخم من فوق الرف، فأحدث مزيدًا من الرعب، أزت العجلات وانبعث صريرها الحاد تحاول التوقف، ربت الأب على ظهر محمد بخيبة أمل وهو يقول:

- ياه.. عطلة تاني..

توقف القطار وسط الخلاء كاليتيم.. قال الفلاح الأشعث:

- لا محطة ولا يحزنون.. حجزوا على الدلتا أيضًا..

ارتفعت أصوات متبرمة تشتم الحكومة والسائق.. دخل الكمساري منفعلًا:

- احمدوا ربنا.. كنا سنذهب في شربة ماء.. كان هناك حجر ضخم موضوعا على القضبان.. رأيناه في اللحظة الأخيرة..

نظر الركاب لبعضهم البعض مرعوبين.. قال الأب: يا ساتر يا رب..

- لا تحملوا همًّا.. السائق يزيحه الآن..

كان محمد يعرف أن قطار الدلتا ينزلق حقًّا إذا وضعنا على قضيبه قطعة من الصابون عليها مليم أحمر، هكذا أخبره صالح زميله في المدرسة، تساءل الأب:

- مَن فعل هذا؟ لا يوجد سوى الخلاء..

- أولاد الحرام في كل مكان.

لمح محمد المرأة أولًا، حسب أنها مجرد خيال مآتة قديم، لكنها ظلت تتحرك عبر غيط البرسيم قادمة نحو القطار، أطلت الرءوس من النوافذ، ظلت تتابعها دون أن تنبس بحرف حتى صعدت العربة، مجرد امرأة طويلة نحيلة سوداء، تحمل على يدها طفل ضئيل، اقترب الكمساري منها مغتاظا حتى ظنوا أنه سيضربها، أحاطت الطفل بذراعيها وواجهته بثبات، تراجع وهو يدمدم بكلمات غاضبة، لم تبالِ به، لم تبالِ بنظرات الارتياب من الجميع، سارت في الطرقة الضيقة حتى جلست في المكان الخالي جنب محمد، زام الأب وتطلع نحوها، سمعها محمد تردد في خفوت:

- حكم..

تساءل بينه وبين نفسه: هل هي التي وضعت الحجر حتى توقف القطار؟ تأمل وجهها، كان يشبه الصلصال في حجرة الأشغال، جلد داكن مشدود، شفة سوداء وعينان واسعتان، يدها طويلة الأصابع، تحتوي الطفل بكف واحدة، أزاحت اللفافات القذرة، ظهر رأس الطفل صغيرًا ومحتقنًا، كأنه مولود لتوه..

ظل الأب يحملق فيها حتى أخرجت ثديها فأشاح بعينيه للخارج، كان الثدي أقل سمرة، مفلطحا، ممتلئا بالنقط البنية، أمسكه الطفل بكلتا يديه وأخذ يمتصه في شراهة، هبط سكون غريب على العربة، ذابت النظرات الحادة، وتعثرت كلمات السباب، توقف الكمساري جنب الباب وتشاغل بالنظر للخارج، لم يتصور محمد أن الطفل بهذه الشراهة، ووجه الأم يشع بابتسامة ورضا غير محسوبين، قال الفلاح الأشعث بودٍّ حار:

- من أين يا شابة؟

قالت بصوت رقيق لم يتوقعه محمد وهي تضم الطفل: من بعيد..

وسار القطار، قال الأب محاذرًا النظر إليها:

- صالح وأبوه يعرفان ميعاد وصول القطار، أليس كذلك؟

فكر محمد، يأتي صالح في هذا القطار، يحشر جسده وسط زحام الناس، قال إنه ظل يتعالج من البلهارسيا لمدة أربعة عشر يوما، يأخذ كل يوم حقنة مؤلمة قبل أن يتناول إفطاره، وفي النهار أعطوه ورقة صفراء تؤكد أنه شفي تمامًا، بعد ذلك عندما حاول التبول وجد الدم لا يزال موجودًا، لم يتغيب عن المدرسة إلا قليلًا، مريلته دائمًا متسخة ويزامل محمد في نفس الدرج حتى إن مدرس العربي الضعيف البصر كان يخلط بينهما، ثبتت المرأة بصرها فوق الأقمشة، شعر محمد بالعطش، توقف الطفل عن الرضع، وظل بريق الحرير يجذب عين المرأة، خفتت أحاديث الفلاحين، وأقعى الكمساري جنب الباب يدون أرقام تذاكر، وعين الأب شاردة للخارج، مدت المرأة يدها ووضعتها فوق أول مقطع من القماش، راقبها محمد مبهورًا، لم يتكلم أو ينبه أباه، زحفت أصابع المرأة في نعومة تتحسس النقوش الدقيقة، اختلج وجهها

وتوهجت الخيوط، تراجعت الأنوال والبيوت الفقيرة إلى أقصى البلدة، جاء المحمدي يلبس عفريتة متسخة وطالب الأب ببقية الحساب، وأيام الثلاثاء تمضي تباعا، ينصب السوق وينفض، تتراخى ضربات الأنوال ويكسو وجهَ الصنايعية مزيدٌ من الشحوب والإرهاق، توقف الفلاحون حتى عن الهمس، فكر محمد، سأقول لأبي، يدها خشنة وسوف تجرح الحرير، لم يفعل، نهض بضع من الفلاحين معهم الفلاح الأشعث حتى توقفوا بالقرب من الأب، أحس بحركاتهم فالتفت، سحبت المرأة يدها بسرعة، نظر إليها بضيق، عادت تردد في هدوء: حكم..

تحلق الفلاحون حول الأب، مد أحدهم يده وقال في همس مبهور:

- الله على قماشك يا معلم.

ضحك الأب مختنقا: غالٍ.. غالٍ ولا يحتمل البهدلة.

شفاههم مشققة تحمل ظمأ غريبا، عاود الأب الضحك المتوتر وهو ينزل يد أحدهم، قال الفلاح الأشعث:

- لبس العيد يا معلم..

أحس الأب بالحصار، الكمساري صامت ومحمد خائف، قال الأب بصوت حاسم:

- المقطع الواحد بجنيه ونصف.

تراخت أيديهم، بدت خيبة الأمل واضحة عليهم، بحث الطفل عن الثدي فلم يجده، ارتفع صوته باكيا، ضمته أمه وتمنى محمد لو أنه خارج القطار، عاد الفلاحون إلى مقاعدهم، عاودوا البحلقة في السلاسل الفارغة، وقطعت السحب التي تبدو من خلال النافذة كالقرى المهجورة، وواصلت العجلات صريرها..

٢

فلما كان اليوم السابع، وصلت السفينة إلى أرض يابسة، وكان زبد الطوفان والطحالب مازالا عالقين بحواف الطين، تهادت السفينة ببطء وقد سكنت حدة الطوفان، تقدم نبي الله «شيت» إلى المقدمة وتطلع في شرود للخلاء الممتد، قال: سوف أهبط في هذا المكان، كان أصغر أبناء سيدنا نوح وأحبهم إلى قلبه، لذا وضع يده فوق كتفه في حنان وقال: هذا المكان لا شيء، لا اسم له، ولا يسكنه قوم معروفون، لكن نبي الله «شيت» كان يختنق، حتى إن محبة أبيه أحاطته كالطوق، قال حازما: أشعر أن هذا مكاني، وسوف أهبط إليه، أنزل الأب يده وقد افتقد الود في لهجة ابنه، لم يكن قد تعدى ألف سنة من عمره بعد، لكنه شعر بالتعاسة وهو يشاهد أولاده في تخليهم المستمر عنه..

ولم يأخذ نبي الله «شيت» شيئًا، ترك كل ما على السفينة من حيوان ونبات وبشر، حتى ولا امرأة، لم يجد شيئًا طيبًا لم ينهكه السفر، هبط، وسارت السفينة، ومرت أيام وأيام، وانقطعت أخبار سيدنا نوح، وامتدت اليابسة حتى غطت الأفق.

تشاغل محمد بكتاب المطالعة، أخذ يرقب أباه وهو ينصب «مزدية الحرير» الجديدة على النول الخشبي، أصبحت مهيأة لعملية النسج وإنتاج أثواب جديدة، الجد الأكبر ما زال على قيد الحياة، يجلس كل غروب عند باب القاعة يوزع أجور الصنايعية كأنه الرب لحظة تقسيم الرزق، ومحمد يحلم بذلك اليوم عندما يكون له نوله الخاص، الأب يفرد ذراعيه ويسرح الخيوط الحريرية بواسطة خشبي ناعم الملمس، اليوم الأول يكون دائمًا مختلف المزاج، عندما تكون الخيوط مشدودة كجسد البنت البكر، تشع وهجا نضرا، أمسك الأب البخاخة وأخذ يرش عليها طبقة رقيقة من الصمغ المذاب في الماء حتى يزيد من متانة الخيوط، وعاد يسرحها من جديد، وهي ترسل صوتًا خفيضًا يسري في جو القاعة، أشبه بالتنفس الناعس، لحظتها يحس الأب بالتوحد من النول، كانت مشكلة محمد من الخيوط الحريرية ضعيفة، كلما حاول الإمساك بها تقطعت، بينما يراقب يد أبيه المفلطحة الخشنة وهي تمر على الحرير دون أن تقطع خيطًا واحدًا، عندما سأل الأب عن ذلك قال ضاحكا: خيوط الحرير كالمرأة يا محمد يجب أن تعرف كيف تتعامل معها، غدًا تكبر وتعرف..

والجد مازال جالسا عند الباب يسب الصنايعية، فيتلقون سبابه بالضحكات: يا معلم قنديل نسيك الزمن والكار.. جلس الأب خلف النول ساكنا، تتحرك شفتاه فقط، ترددان شيئًا خافتًا، أرخى محمد الكتاب وسأله:

- ماذا تفعل يا أبي؟

- أقرأ الفاتحة.. على روح سيدنا «شيت».

وظل الاسم يتردد طويلًا.. دون أن يفهم معناه..

تشابك أطراف المساء، من أول البلدة عند «صندفا» وقنطرة المدبح، إلى نهايتها فوق مئذنة مسجد التوبة ومقام سيدي المحجوب، تخفت ضجة الأنوال وتغدو كالوجيب، يقطع الصنايعية أطراف الأقمشة، وينام الجد قنديل على الدكة الخشبية في فناء الدار مثله مثل كل مساء ينتظر الموت، ذهب محمد إلى المدرسة، وبدأ الأب يضطلع بمهام الأنوال، أصبح الصنايعية يتأكدون أن الجد لا يسمع، ويجلسون على المقاهي الضيقة في شارع البوظ يثرثرون عن سيدنا الخضر عندما مر بالمحلة وبارك أهلها ووهبهم نعمة نسج الحرير، بدا واضحا أن الموت يخشى زيارة جدي، وأعاد محمد السؤال مصرًّا:

- مَن هو سيدنا «شيت»؟

لم يكن الأب يعرف الكثير، لكن الجد كان يعرف الكثير عن الله وعن أنبيائه، ظل ينام على الدكة كل مساء، ويحكي لمحمد حتى وجد الموت في نفسه الجرأة وغافله ذات منتصف ليل.. هكذا سار نبي الله «شيت»، غريبا.. حتى أتي أرضا كلها عراء، لم يكن له كتاب ولا معجزة، ولم يكن مجديا أن يحدثهم عن شيء؛ لذا أمسك الخشب وصنع أول نول من ألياف النخل، ضحك محمد مندهشا:

- ألياف النخل؟!

أمسك الجد ليفة حمراء وأزاح قشرتها ثم أشار للداخل:

- انظر، هذه الخيوط المتقاطعة طولاً وعرضًا، هكذا صنع سيدنا «شيت» أول أنوال اليدوي..

حلم محمد بسيدنا شيت، يسير على حافة الترعة الواسعة التي تعبر المحلة، نحيفا، شاحب الوجه، وطرف أنفه محمر، يخب في جلبابه «السكروتة» مثل بقية الصنايعية، يذهب إلى المصبغة معهم، فيصيغ الحرير الأزرق بزهرة النيل، والأحمر بقشر الرمان، والأصفر بنوى المشمش، وعندما تتخمر بقايا كل الألوان طوال ليلة كاملة، يكون اللون الأسود، وبعد أن تتم عملية الصباغة يحمل نبي الله الحرير معهم، ينشره على أعمدة الكهرباء بطول المدينة وعرضها حتى يجف، وعندما ينزل النول تبدو قدمه المفلطحة وساقه الضامرة المشدودة العضلات، مثلهم تمامًا، وعندما مات الجد في منتصف ليل الجمعة، وكان وجهه يحمل ملامح سيدنا الخضر وسيدنا شيت، وفي المدرسة أهمل مدرس الدين قصة هذا النبي الغريب، سأله محمد بإصرار فأنكر الأستاذ، وقال إن أنبياء الله معروفون كالشمس، وليس بينهم مثل هذا النبي، لكن محمدًا ظل موقنا من وجوده، من أنه مازال يعيش، يسير بين الصنايعية الفقراء ويعطس من برودة القاعات، ويحمل في كل غروب القماش التي نسجها عبر دروب «صندفا» الضيقة، وعند عودة محمد من المدرسة تزدحم الطرقات بالنسوة أمام الدواليب، والأولاد يكرون بكر الخيط، والأطفال ينتقلون بسلال «المواسير» يعطون كل صنايعي حصته، تعلو أصوات غناء خافت، مزيد من الصبر وانتظار الفرج، وفي نهاية كل يوم يرقبون بلهفة نتيجة الميزان، لحظتها يسمع محمد نبراته وهو يلح في طلب أجرة عرقه كاملة، ولنؤجل الخصم يا معلم حتى الثلاثاء، نؤجله يا معلم..

كان اليدوي حلما، هكذا، بعد أكثر من ثلاثاء مؤجل، عاد الأب والصنايعية وبقية معلمي اليدوي من سوق المدينة حاملين أقمشتهم بأكملها، لم يبع أي واحد منهم قطعة واحدة، انتهى الزمن الحلو على حين غفلة، وانتصبت مداخن المصانع، شرق البلدة كالوعد، كان الوقت في عز الشتاء، والوحل يمتد بعرض الطرقات، وأقدام الصنايعية والزبائن الذين يكتفون بالفرجة تخوض فيه دون أن يظهر أي من التجار. عادوا دون أن يتبادلوا كلمة أو يستطيعوا النظر لبعضهم، هذه اللحظة أيقن محمد أن سيدنا «شيت» قد مات.. وأنهم كلهم يسيرون في جنازته، انهار الأب فوق أحد المقاعد.. وقرر: خدعنا التجار..

لكن التجار هجموا فرادى في غير يوم السوق، دخلوا إلى قاعة كل معلم على حدة، عرضوا أثمانا بخسه كأنها التراب، وظل الوهن يصيب الدقات والأقمشة تتكدس، تعطلت خمسة أنوال جديدة، وعندما زادت حدة الشتاء، سقط الأب مريضًا، سهرت الأم تبدل القطع المبللة فوق جبينه، وبدأ يخرف في الكلام، يتكلم عن محمد، عن صفارة المصنع التي تشق بطن البلدة ولحظة نزول الجد إلى قبره، والتجار يتبادلون الضغط على عنقه، وبكى محمد بينما كان عائدًا من المدرسة، قابله المحمدي، نظر إليه محمد مغتاظًا، شاهد عفريتة المصنع الزرقاء المتسخة، كان بينهما ود قديم، طالما حمله وهو صغير، واشترى قطع الكراملة، جلس المحمدي أمامه نصف جلسة، وقال معتذرًا:

- غدا سوف تكبر وتفهم يا محمد، لم يكن هناك مفر من المصنع.

أفاق الأب وبدا ذابلًا مهزومًا، عاد للقاعة دون نفس، لم يعاود قراءة «المصري» جريدته المفضلة، تأمل قطع الأقمشة وقال:

- نبيع القماش أكفانًا والله، يتكفن الأموات في «الألاجة» و«السكروتة» وعليه العوض في الدنيا.

جاء المعلمون من صندفا والوراقة وسوق اللبن، جاءوا من الأحياء الواطئة خلف تل الواقعة والتربيعة والتفوا حول الأب في القاعة الرطبة، كان المرض قد أصابهم جميعا في نفس الوقت، قرأ محمد الفاتحة على روح جده ووضع في طاقة قبره قطعة من الصبار، لم تخرج الأم برحمة ونور لضيق ذات اليد، اكتسب الأب حيوية مفاجئة عندما شاهد الوجوه تتطلع نحوه آملة..

- التجار يحاصروننا.. يريدون لنا الخراب.. أليس كذلك؟

وضع كوب الشاي الفارغ وأعلن: سوف نوزع قماشنا بأنفسنا..

رفع المعلمون رءوسهم في دهشة. حقًّا. لم لا؟ انتفضت الأنوال في شهقة ما قبل الموت، بدا أن هناك فرصة أخرى تزهو فيها خيوط الحرير، هناك فاتحة أخرى ومزيد من الرحمات في انتظار سيدنا «شيت».

- نهبط بلاد الفلاحين حول المحلة، نذهب حتى الصعيد، المحلة سُمعتها كالبرلنت في سوق القماش، سنبيع بالثمن الذي يُرضي الله..

انصرف المعلمون وعيونهم تبرق، واقترح محمد أن يذهبا إلى بلدة صالح زميله في المدرسة، أخرجت الأم الجلباب الصوفي من قاع الدولاب وأخذت تنظفه، واصل الأب القول، سوف يكون الثلاثاء من صنعنا في أي يوم، وأي بلد، وظلت فلول المعلمين تجتمع في حذر، تقرر وتناقش وتدبر خطط رحيلها السري، والمداخن تطل عليهم بغيظ مكتوم، حتى إن اليدوي عاد يدويًّا بشيء من القوة القديمة.

٣

تسكن الريح أحيانًا، يتعثر الحمار فوق التراب الناعم كأنما يخشى أن يغوص بحمولته، الأقمشة فقدت لمعتها، ووجه الأب مكفهر، وكل شيء مُنحنٍ إلى أسفل، كان عم جبريل يسعل وهو يقود الحمار وسط بيوت القرية الطينية، امتلأت عينا محمد بالتراب.. همس صالح:

- أبي كلم العمدة بالأمس.. وسيشتري القماش من أبيك..

سُر محمد رغم أنه لم يصدق أي احتمال لمقدرة عم جبريل، كان عجوزًا مضعضعًا، حتى إن وجهه يظل دائمًا متجها للأرض، توقف الحمار وأخذ ينهق بصوت كالبكاء.. قال عم جبريل:

- يا معلم منسي أنت ضيفي.. على الأقل نأكل معا لقمة صغيرة..

استقبلتهم سمية أخت صالح بابتسامة طيبة، لم يكن الأب راغبا في الأكل، جلسوا على الحصيرة وأمامهم عدة أطباق بسيطة..

- على ما قُسُم.. شيء لا يليق بالمقام..

مال صالح على محمد وقال:

- سوف نذهب.. نلعب في الجرن..

كلا.. سوف أبقى مع أبي.. تأمل العم جبريل مقطعا من القماش، قال في انبهار حقيقي:

- الله يا معلم منسي.. يا سلام على الزمن.. قماش مثل هذا يجب على الناس أن تسعى إليه.. قماش ناعم وغالٍ.. لا يليق إلا بالأكابر..

فكر محمد. لو أنها لي لأعطيتها له دون مقابل. سعل الأب في حرج، ازدرد لقيمات صغيرة، في الصباح لم يتناول فطوره، قال للأم إن معدته ممتلئة بالغازات. خاف محمد أن يطلب منه أبوه البقاء مع صالح، ويذهب وحده، نهض متعجلا وهو ينفض ثيابه باهتمام، قال الأب: يا محمد.. لم يدعه يكمل، قال في لهجة مهددة بالبكاء:

- أريد أن أذهب معك..

وساروا جميعا في اتجاه بيت العمدة، ألِفَ الحمار حمولته بعض الشيء، وازداد ظهر عم جبريل انحناء، أخذت ريح «برقة» تزوم وتخفي كل شيء.

- والله يا عم منسي، لم تترك الشدة أحدًا على حاله، كل يوم تزداد الحالة الضنك لا لقمة هنية ولا هدمة نظيفة.. حتى نقود المدرسة لا ندبرها إلا بصعوبة.

في البداية عندما جلس صالح جنب محمد ادعى أن أباه أغنى أغنياء قريته، صدقه، حتى إنه لم يتأمل مريلته المتسخة ولا الحقيبة المتآكلة، لذا فقد تبادلا الآن نظرات خجلى، وحزّت فيهما الكلمات الشاكية معا، تباطأت خطوات الحمار، وألقى الرجال العابرون سلاما خاطفا وهم ينظرون للأقمشة في ارتياب، بدا صالح على وشك البكاء، انتهت الطرقة، وأصبحوا في مواجهة بيت العمدة الضخم. قال صالح:

- أريد الانصراف.. لن آتي معكم.

استغرب محمد وشعر بالخوف، تأمل الغفير عند الباب وهو يحمل بندقية تقاربه طولا، قال عم جبريل بصوت خافت ممتلئ بالرجاء:

- معلم المحلة يريد مقابلة العمدة..

لم يبدُ عليه أي ود، أشار نحو الباب وأدار لهم ظهره، حمل الأب الأقمشة وانزوى الحمار في أحد الأركان، التفت محمد فلم يجد صالحا.. دار برأسه في كل اتجاه لكنه اختفى، دخلا من الباب وهو يمسك بذيل جلباب أبيه، زامت أربعة أو خمسة كلاب كانت مربوطة مقعية جنب الجدران، حدقت فيهم، بعيونهم الصغيرة اللامعة، بدت ألسنتها طويلة متدلية، ينسال من جانب فمها خيط رقيق من اللعاب، كانت هذه هي

المرة الأولى التي يرى فيها محمد كلابا سمينة لهذه الدرجة، فتح أحد الغفر بابا آخر يقود لجلسة العمدة، كان يجلس في مواجهتهم تمامًا فوق مكان مرتفع، أما باقي مَن في الحجرة فيجلسون في مستوى أقل، قال عم جبريل كأنه يتوسل: سلام يا عمدة. رد العمدة بإشارة موجزة بيده التي تحمل مسبحة صفراء.

جلس الجميع، بدا العمدة نحيلا بعض الشيء، ذا لحية كثة، وفوق رأسه عمامة نظيفة، في بقية الغرفة تناثر أعيان البلدة، ظل الأب يراقب الجميع بنظرات متفحصة، كان للسوق في داخله إيقاع خاص سواء في الشارع أم في الحجرة الضيقة. لذا ظل مرتابا، ابتسم العمدة: آنست وشرفت.. رد الأب التحية وهو يفرك يديه..

ظل الأعيان متجهمين، يتطلعون نحو العم جبريل بنظرة حانقة، تقدم الغفير وهو يحمل كوبا واحدًا من الشاي وضعه أمام الأب واستدار عائدًا، نظر الأب حوله في حيرة، عاود العمدة الحديث:

- يا أهلا بناس البندر..

بدا عم جبريل كالفأر المحبوس، خلع طاقيته المتسخة وأخذ يمسح عرقه فازداد وجهه اتساخا، ولم تتراخ نظرات الأعيان المتوترة، لعلهم كانوا يتساءلون كيف تسنى له أن يمر من البوابة وعبر الكلاب والباب الضيق، أدرك الأب بغريزته أنه لا بيع ولا شراء مادام هذا الجبريل موجودا، نهض عم جبريل فجأة وقال في خجل:

- لا مؤاخذة.. ميعاد الصلاة.. سأكون في انتظارك يا معلم منسي..

أحس محمد بالخوف الزائد وعم جبريل يتركهم، ولكنه دهش عندما شاهد علامات الارتياح فوق وجه الأب، تنهد الجميع في صوت واحد كأنما كان يجلس فوق صدورهم، قال رجل أحول.. عرف محمد فيما بعد أنه شيخ البلد:

- أووف.. ناس تخاف لا تستحي..

أدرك محمد لماذا اختفى صالح؟ قال العمدة:

- هيه يا معلم، دعنا نرى بضاعتك..

كره محمد لهجته الناعمة، كأنما هي حد السكين، اكتشف أن الأعيان يحيطون بهما معًا، أنزل الأب كوب الشاي متمهلا، سبقته أكثر من يد تتحسس القماش، تجذبه دون رقة، ضحك.. حاول أن يعيد النظام، كان الأعيان يلهثون، سمع محمد دمدمات أنفاسهم، يا سلام يا معلم، والله يا سيدي، أضاف العمدة في خبث. لكن أي ريح ألقتك علينا؟ أحرج الأب لكنه قال: كان التجار دائمًا يقفون بيننا، اندلق كوب الشاي، أسرع بإبعاده.. جذب شيخ البلد مقطعا طويلًا من القماش.. لحقه الأب بصعوبة، تثاقلت أنفاسهم، قل إن الكار أصبح في الحضيض، زعق الأب: كلا.. كان شيخ الغفر غاية في البلادة، شاربه متهدل. لا يلمس القماش ولكنه يتطلع في ريبة، شعر محمد أن جو الغرفة أصبح أكثر عتمة، ود لو يستطيع الهرب إلى أي مكان، أن يجلس مع صالح

وعم جبريل، عاودت الريح صريرها في الخارج، قال العمدة: يا سلام على الخماسين كأنها كرابيج..

قال الأب أخيرًا: أنتم تفسدون الترتيب، ما هكذا تكون الفرجة؟

ود لو يقول لم أكن أظن أصابعكم بهذا الطول. انتزع شيخ البلد الأحول مقطع «سكروتة» مشغولًا بخيوط حريرية حمراء، قال بصوت حاد: بكم؟ ذكر الأب الثمن في إيجاز ملمحا أنه لا فصال. ألقى المقطع وهو يزوم غير راضٍ، ثم عاود تناوله وهو يضحك ضحكة صفراء: يا معلم نحن نعرف البير وغطاه، وفكر الأب: هل يظنوني أتسول؟ أصبح صوت العمدة كصرير العجلات الصدئة، قال: تهاون يا معلم منسي، نحن نريد أن نشتري ونساعدك.. هتف الأب: سعيكم مشكور.. وحاول ترتيب المقاطع، كان أحد الأعيان سمينًا إلى درجة كبيرة أضخم من ثلاثة مجتمعين، لف أحد المقاطع حول وسطه فبدا لامعًا متألقا، انفجر في ضحك صاخب حتى إن العمدة لم يملك إلا أن يتجاوب معه، قال شيخ الغفر بنفس الريبة: لكن لماذا جئت مع الفلاح جبريل؟ أشار الأب نحو محمد وحاول أن يشرح.. لكن: الآخر استدار وتشاغل بالنظر إلى آية قرآنية على الجدار، فكر حانقًا: يلعن أبوكم، لكنه ابتسم وحاول أخذ المقطع من العين السمين لكنه تشبث به وهو يدمدم، عاود العمدة همسه الشبيه بالصرير: هل هو قماش متين؟ يخيل لي أنه قماش المصنع.. هه، تخيل محمد المداخن وهي ترصدهما في شماتة، والأم تدعو وتنظف الجلباب، وسيدنا «شيت» لحظة الاحتضار، تحولت الأقمشة الجميلة إلى مقاطع مفكوكة، مفرودة في انحناء الغرفة والأعيان يجوسون خلالها كالحيوانات الفالتة، قال الأب رافضا المساومة: والله لا أقدر، هذا لا يساوي ثمن الخيط.. ضحك العمدة: والله أنت راجل طيب، علت الكلاب فجأة في موجة من النباح السعران، وفكر الأب: حتى الكلاب يشاركون الفصال، وعاد شيخ الغفر يلح: هذا القماش لك وحدك؟ أمسك الأب أحد المقاطع وشعر بالخوف وضمه إلى صدره وبادله نظرة ثابتة..

قال العمدة: المعلم ضيفنا يا أبا إسماعيل، سمع الأب صوت تمزق فالتفت بسرعة، كان شيخ البلد يتأمل أحد المقاطع هادئًا فوق العادة، وبقية الأعيان يدعكون الأقمشة بين أصابعهم في قسوة..

احتار الأب، ماذا يريدون بالضبط؟ قال العمدة: سوف نشتري الكثير، يجب أن تتهاون في السعر، قال الأب: والله على عيني.. ولكن لكل شيء تكلفته، أنا طرحت آخر ما عندي، بدأ العين السمين يصفق في مرح.. قال العمدة بخفوت: لو اشتراها فسوف يرميها في الزريبة، عاود شيخ البلد الإلحاح وهو يمسك نفس المقطع ذي الخطوط الحمراء: سأشتري هذا، ما قولك؟

ذكر الأب نفس السعر فألقى المقطع، ابتسم الأب: يا شيخ البلد أنت قدها وقدود، لكنه تظاهر بالغضب وكان الثمن بخسا.. بخسا.. لا يساوي تعب النهار ولا برودة الموسم، ولا انكفاء الصنايعية ولهفة كل غروب، بخسا لا يساوي هذا الإنهاك وتلك الإهانات الخفية، انتصب شيخ الغفر، واقفا في منتصف الحجرة:

- الهوانم يريدون الفرجة..

تنهد الأب أخيرًا.. لن يحسم أمور البيع والفصال سوى النساء، ونساء العمدة مثل كل نساء الدنيا عقولهم فارغة، أخذ يعيد ترتيب الأقمشة، جذب كل مقطع من جهة مختلفة وأعاد طيه، تشبث العين السمين بما عليه، هبط سكون غريب على كل مَن في الغرفة، حتى العمدة أخذ يعبث في حبات مسبحته محاذرا أن يسمعه أحد بلا استئذان، أقبل شيخ الغفر وانتزع الأقمشة من أمام الأب ومن بين يديه، واختفى خلف باب الحجرة، وظل الأب يتطلع في أثرها قلقا، قال محمد بصوت خافت جدًّا:

- أنا خائف..

لكنهم سمعوه، انطلقوا فجأة في الكلام، صوّب العمدة نظرة قاسية إليه، حاول العين السمين الرقص وهو يزيد من لف المقطع حول وسطه، لكن العمدة صرخ فيه حازما:

- اجلس وكفى مسخرة..

جلس وقد تقلصت ملامحه كأنه على وشك البكاء، ورغما عن التحايا الجافة بدا الأب قلقا. يرمق الباب بنظرات خفية، تعالت ضجة أنثوية خافتة خفية، طغت عليها ثرثرة الأعيان، ترك شيخ البلد يده وهتف بالأب:

- هيه.. قلت بكم؟

ولم يرد عليه الأب.. لو تكلم فسوف ينفجر في وجهه، زعق شيخ البلد:

- يعني قماش إنجليزي يا خَيّ.

وازورَّ غاضبًا..

وأخيرًا دخل شيخ الغفر يحمل الأقمشة بين يديه كتلة مهوشة بلا شكل ألقاها أمام الأب بلا مبالاة ثم رفصها حتى يقربها وقال في إيجاز:

- أخذوا مقطعا..

برطم العمدة وهو يضغط حبات المسبحة، قال محمد: ننصرف يا أبي..

رأى أصابع الأب ترتعش وهي تلملم القماش كأن الثنيات والخيوط المنسولة جروح صغيرة تنزف، بدا من المستحيل ترتيبها، لكنه واصل الطي بلا وعي حتى يحملها وينصرف، تنهد العمدة كمن غلب على أمره:

- قطعتان يا معلم.. على خيرة الله..

أخرج النقود بتلكؤ، أخذها الأب دون أن يحصيها، حمل أقمشته بسرعة، أمسك محمد بذيل جلبابه، الطرقة خانقة، الكلاب تزوم في حرقة، الغفر ينظرون في ريبة جائعة، والخماسين كالسياط، تتمدد العتمة وتطبق، وجلبة الأعيان تختلط مع لهاث الكلاب، وجه عم جبريل مكلوم، بالغ الانكسار الحمار ينهض متأفقا كسولًا، وفكر محمد، أبي مريض لكن ليته لا يتأوه وتكلم عن جبريل ليعتذر، ويشكو.. وكأنه يقودهم في عكس الاتجاه الصحيح وظل صدر الأب مطبقا، مرة أخرى نسير في

جنازة النبي الغريب.. مرة أخرى يا محمد، وبدا ضوء المحطة واهنا يوشك أن ينطفئ، قال الأب محاولا إرضاء عم جبريل:

- أنت فعلت ما عليك وأكثر.. وأصر أن يبيتوا عنده، لكن الأب شد على يده ممتنا.. ومن وسط الظلام برزت المرأة النحيلة، تذكرها محمد بسرعة برغم خوفه، ظل الأب وجبريل يحدقان غير فاهمين، وقفت المرأة في مواجهة الأب، قالت في لهجة غريبة ما بين التوسل والأمر:

- بع لي مقطعا يا معلم..

نظر إليها بتمعن وأوشك أن ينفجر ضاحكا من الغيظ، لكن المرأة رفعت الطفل الضئيل القذر بين يديها وقالت:

- أريد مقطعا له.. يلبسه ويصبح سيد الناس..

ضمته لصدرها، ثم مدت قبضتها اليمنى وفردتها أمام الأب، لم يكن بها سوى ورقتين ماليتين لا يشتريان بكرة خيط وقالت بثقة:

- معي نقود يا معلم..

هز الأب رأسه، ربت عم جبريل على كتفها وتعالت صفارة القطار، قال الأب في حسم:

- بنا يا محمد..

تصافح الرجلان بسرعة، ولبثت المرأة غير فاهمة: لماذا لا يريد إتمام الصفقة؟ ظل الأب صامتا، ثم انتفض واقفا وسار للمرأة، قدم لها مقطع القماش، تناول من يدها الأوراق المالية الضئيلة القيمة وهو يهمهم:

- يلَّا.. بالخسارة بالخسارة..

بدت العربة موحشة خالية من الركاب، شعر محمد بالبرد ينفذ إليه من كل مكان، استكان في مقعده ولم يعد ظاهرًا من البلدة سوى كتلة من الظلام، وسرت العجلات من جديد، وظل محمد يغرق في الظلمة، تتقارب أعضاؤه بحثا عن مزيد من الدفء، رأى محمد الولد الضئيل ابن المرأة السوداء وقد كبرت ساقاه، رآه يتقافز فوق مقطع من القماش الحريري اللامع مفروش بطول درب القرية، رأى المدرس يلوح بالعصا مهددا، والعمدة يأكل حمار العم جبريل، والعين السمين يرقص في شارع السوق الرئيسي، وأبوه يلبس جلبابه الصوفي ويسير وسط رهط المعلمين..

ورأى الحمار يخرج من فم العمدة ويتحول إلى حصان أزرق يقطع المسافة ما بين المحلة في غمضة عين..

استيقظ مفزوعا والأب يهزه:

- محمد.. محمد.. استيقظ.

رأى وجه الأب محتقنا غاضبا، استطاع أن يسمع كلماته المختنقة بصعوبة:

- القماش ناقص في العدد..

١٩٧٣

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

سوف نعيد ترتيب كل شيء

الساعة الخامسة ولم تحن لحظة العبور، فكر جندي مؤهلات «أحمد الحوتي»، حتى هذا المعبر البعيد يبدو كالحلم، مرقت طائرة وسط السماء كنصل سكين، وظلت الأرض ترتجف إذ تسري فيها نبضات الدوي البعيد، وكلمات البيان السادس تدوي.. يحاربون هناك، ولا أحد يحلم..

ضغط فوزي - الجندي السائق - فوق نفير السيارة.. قال أحمد متوترًا:

- لم يحن دورنا بعد..

قال فوزي لاهثا: لا أصدق أنني سوف أعبر..

ومَن الذي يصدق؟ الموت القريب لا يترك برهة للخوف، الدبابات تدمدم فوق أخشاب المعبر، تستدير ثم تختفي خلف تلال الضفة الأخرى، فكر أحمد، سوف أكتب خطابا لأخي الصغير، أكتب لك من مواقعنا الجديدة داخل سيناء، تأمل خريطة مصر في المدرسة، وسوف أكون نقطة صغيرة على الضفة الأخرى طمأن أمي وقبل يدها.. قال:

- بعد الدبابات سوف تعبر المدفعية الثقيلة، وسنكون نحن في المقدمة.

قال فوزي: وسوف نعود أحياء أليس كذلك؟

بوغت أحمد بالسؤال، رأى وجه فوزي وهو يختلج، مندهشا وخائفا، تذكر وجه بائع الجرائد ذا الساق الخشبية، دائمًا يقابله في كوبري الليمون كل إجازة ويسأله في إلحاح:

- ما أخبار الحرب يا دفعة؟

سارت العربة فجأة، كانت سيارة القائد في المقدمة، اقترب الجسر، مثل ذراع بالغ الطول يضم ضفتَي القناة معًا، سمع أحمد دقات قلبه واضحة، لست خائفا ولا سعيدًا، كانت مياه القناة - من فعل البرودة - شريطا أسود طويلًا. يجمع كل الوجوه التي عرفها، تعالت أصوات الجنود عبر زمجرات «الموتورات»، كانوا يغنون معًا في حرارة:

- يا عزيز عيني.. ياما نفسي أروّح بلدي..

«منية عياش» كتلة الطمي والخضرة التي تنتظر بلا كلل. رشيدة يا أختي الصغيرة، كيف يمكن أن تضاء مصابيح الزفاف والطائرات ترصدنا، تبدو القناة ساجية كوجه النهر إذ يعبر القرية، ثم تضطرم المياه ويظهر جوفها المعبأ بحطام القنابل، يا عزيز عيني، أيام الحرب حارة، والأحلام مخنوقة..

توقفت العربة، رفع جندي الشرطة العسكرية ذراعه يوقف بقية «القول»، بدأت أصوات المدفعية المضادة للطائرات تتابع، اقترب الجندي وفي فمه سيجارة غير مشتعلة. قال:

- هذه خامس غارة على الجسر، ألقوا عليه من القنابل ما يكفي لتدمير عدة بلاد.

أعطاه أحمد علبة الكبريت وتساءل: هل أصابوه؟

- مرة واحدة.. أصلحناه خلال نصف ساعة..

امتلأت السماء ببقع الدخان، ظهرت أربع طائرات تشق طريقها عبر كتل النار، تساءل أحمد في قلق:

- ألا يجب أن نختبئ؟

- لم يعد هناك معنى للخوف، سوف يبقى هذا الجسر للأبد..

جذب نفسًا عميقًا وومضت عيناه، تقلصت مياه القناة وساد الوهج، فكر أحمد سوف أحدث بائع الجرائد عن هذه اللحظة، ذات مرة زعق فيه أحمد غاضبا: لم تكن الهزيمة جريمتي، ظل يركض خلفه بقدمه الواحدة وهو يهتف:

- لا تغضب يا دفعة.. انظر إلى ساقي.. فقدتها في حرب ٦٧ والله يا دفعة..

دوّى انفجار وتصاعد عمود عالٍ من المياه، هبطت إحدى الطائرات وعاودت الارتفاع، رأى أحمد بوضوح الدخان وهو ينساب من الذيل مكونا خطا طويلًا بعرض السماء، هتف فوزي في نشوة:

- لقد أصبناها..

إنهم يفرون، ازداد الوميض في عينَي الجندي، انزاح الهواء الأسود قليلًا ورأى الجسر سليمًا، رفع الجندي ذراعه وبدأ يشير للجميع، قال أحمد:

- مع السلامة يا دفعة، ألم أقل لك.. سوف يبقى الجسر للأبد..

عادت العربة تشق ذرات الهواء الساخن، المياه تضطرم والمدفعية متقطعة تطلق آخر طلقات التأمين، زامت الموتورات وتمنى لو يعود الجنود للغناء، لو يجلس بينهم ليرددوا معا كل الأغاني المصرية العذبة، لكنه وحده في هذا «الجب» الموحش. خلفه أجهزة قياس الضرب ومؤشرات الضبط مكومة، والجسر يكبر حتى يملأ الأفق، استدار فوزي بالعربة، وشعر أحمد بها وهي ترتج فوق أخشاب الجسر، تصدر صوتا أشبه بالشهيق، كأنه يستيقظ، وقديمًا ظن أن هذا الساتر الرملي لا يخفي أحدًا، وأن الانتظار خدعة أخرى، كان الجسر عريضا ذا اتجاه مزدوج، وعندما وصلت بقية السيارات، إلى أوله، سمع أحمد ضجيجا ينزع إحساسه المؤقت بالوحدة، تذكر جدته، كانت تحكي له عن سيف بن ذي يزن، كيف سافر إلى منابع النيل ودفن كتاب الحكمة تحت أعمدته، من يومها والنيل يتدفق على أرض مصر، هكذا زرع الجسر، وهكذا سوف يتدفق الجنود.. أخرج أحمد عدة قروش وقذفها في الماء بأقصى ما يستطيع. قال فوزي في دهشة:

- ما هذا؟

- قربانا للحظ الحسن، حتى نعود..

قال فوزي في لهفة: أعطني أنا أيضًا قرشا، وقذف به في نشوة، ومرة أخرى أوقف جندي الشرطة العسكرية السيارة وهو يأمرهما أن يأخذا جانبا من الجسر، لأن هناك سيارة أخرى قادمة من الاتجاه المضاد، تطلع أحمد ليرى ما يعوقهم، شاهد سيارة جيب قادمة تسير ببطء غريب، هدأت الضجة وبدت كأنها تسبح وسط الضباب، علا الوجوم وجه الشرطي، تساءل فوزي ببلاهة: لماذا يعود؟

بدا أن السيارة لا تحمل سوى السائق، فجأة أدرك أحمد كل شيء، نظر للمياه كأنه خدع، تذكر وجه أبيه قبل الرحيل، واستعداد رشيدة للزفاف، وإلحاح أمه عليه أن يتزوج قبل أن.. قبل أن.. حتى فوزي أدرك الأمر، كان وجه السائق معفر بالسواد، ألقى عليهم نظرة جامدة، وواصل سيره البطيء القاسي، نظر أحمد للجثة، المرة الأولى التي يرى فيها ميتا - عندما مات أبوه لم يشاهد سوى الكفن الأبيض وهو ينزلق بين أيدي الرجال - لعلها المرة الأولى التي يدرك فيها أن الحرب لا تترك خلفها سوى الدانات الفارغة والمزيد من جثث القتلى، كانت سترته مخلوعة، مربوطة حول الصدر حتى تمنع النزيف، لكنها بدت ملوثة بالدم وداكنة، كان ممددًا بطول العربة، متصلبًا شاحبًا لحد مذله، ذلك الفم المفتوح، من الدهشة أم من المباغتة؟ حتى الشعر المتموج المحمل بالرمل يبدو كالشيب المبكر، قدماه عاريتان بلا حذاء، أصابعه طويلة ناصعة البياض تكاد تمتد باستقامة الجسد كأنما تتشبث بالأرض، رفع فوزي إصبعه وأخذ يردد آيات التشهد، وعندما عاودوا السير لم ينظر أحمد خلفه وبدت سيناء كالحقيقة القاسية..

وجد أحمد نفسه فوق الضفة الأخرى، جندي آخر من الشرطة العسكرية يحمل علما أحمر ويشير إلى نقطة مجهولة بالداخل، ذابت الأحلام، أصبحت الشمس في ظهورهم، وظل العربة يمتد ببطء، تعري الأرض المحرمة نفسها، التضاريس، والصخور والرمل واللون الأصفر يبدو مختلفا عما كان يراه من قبل أهو الدم والبارود؟ وفوزي يدمدم: يافندم.. يافندم. ثم صرخ..

- السيارة لا تسير..

الإطارات تدور في الرمل، والحبات الخادعة تتسرب وتزيد من اتساع الحفرة.. عاود فوزي الصراخ:

- هذه السيارة لا تصلح للسير فوق الرمال..

شعر أحمد أن كل شيء يتردى، كان «القول» يعاني من نفس العجز، والعجلات تدور بلا أمل، قفز أكثر من جندي وحاولوا دفع العربات، توقفت عربة الضابط وهبط مسرعا، أخذ يجري حتى عبر المسافة إليهم، ولوح بيده:

- ماذا تنتظرون؟ أفرغوا الإطارات من الهواء..

تنبه الجميع، لم تكن المرة الأولى التي يسمعون فيها هذا الأمر، ولكنهم نسوه في غمرة الخوف الجماعي..

أخذ فوزي وأحمد يفرغان الإطارات في سرعة، انخفض مستوى العربات، وعندما بدءوا السير بدأت العربات كأنها تأكل في الرمل..

فكر أحمد: لقد بدأت معركتي إذن، لن أكف عن الاستيقاظ ولا الأحلام، هذا الأفق الممتد لم يعد ملكا لنا بعد، السير دون صوت يخلق حفيفا غامضا، الهواء يحمل في طياته البعث والموت..

خطوة واحدة صحيحة وسط طوفان من الأخطاء والتردي، جاء الجنود في الظهيرة، ولن يكتمل الأمر حتى يأتي الفلاحون ليزرعوا القمح، وحتى يلعب الأطفال دون خشية من الغارات، دون صوت تسير العربة، تعلن الحرب عن وجودها، المدافع المحطمة، الدشم المنيعة وأحشاؤها المتفجرة، ولون البارود يغطي الرمل، طائرة هليكوبتر ممزقة والطيار مائل خارج الكبينة المحطمة، أصابت القنابل كل شيء بالرعب حتى الجبال والصخور، فمتى تنمو الزنابق وتغطي الحطام؟ ويجمع الطائر جناحيه ويسافر إلى بر النيل حيث تتلاصق بيوت الفقراء تنتظر آخر الأخبار: صلي لنا يا أمي.. صلي لنا..

قال فوزي مستوحشا: كم تبدو الأرض غريبة، وقريبة جدًّا، منفى وملتقى.. شوارع «منية عياش» الضيقة، والدروب التي تؤدي مباشرة للشمس والنهر، يمتد نفس الدرب عبر آلاف القرى والترع والنجوع الصغيرة، وحقول القطن ومقابر الصدقة ومستنقعات الدلتا، عبر قواقع البلهارسيا «وأسماك أبو بكر»، وغابات الطريق الصحراوي، وجناين المانجو والبرتقال على حدود السويس والألغام المزروعة في قاع القناة، عبر التبات والخنادق العميقة وملاجئ الأفراد يمتد وينشق وسط الصخور ولا ينتهي حتى يبدو الأفق القديم وتطل الشمس القديمة، سوف يهدم البيت الطيني وينهض بيت آخر من الطوب الأحمر، تتزوج رشيدة ويتخرج حسام، وتقف القطارات السريعة في محطة البلدة وتأتي الكهرباء، ما زالت الطائرات تشق بطن السماء كأنصال السكاكين، لكن كل شيء قد توحد.. عندما تبدأ معركتي يكسبها الجميع هنا وهناك، وسوف يعلن بائع الجرائد الأعرج عن كل شيء في وضوح. يغمس ساقه الخشبية في الألوان ويرسم طائرًا خرافيًّا كبير الحجم، وجوادًا أزرق لا يكف عن الصهيل، وعندما نصل إلى مواقعنا الجديدة سوف نقيم دشمنا، ونضبط زوايا الضرب، وتظل المعركة دائرة حتى نعيد ترتيب كل شيء دون صوت يسير الجميع، ولكن هذا الحفيف يصبح أشبه بأنفاس الاستيقاظ.

١٩٧٤

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

لحظة يمتلئ الجرح بالرماد

٧ قصص قصيرة جدًّا

١

مثل الفراعنة القدامى، حاولت أن أزيل من فوق جسدك نقوش الذين سبقوني وأرسم نقوشي، لأن تواريخهم وأخبار الانتصارات، وآثار البصمات الغائرة كانت تقتلني كل مساء عندما أشم رائحتك. ولقد طفت جسدك كله وتحسست أعضاءك. أبحث عن مكان خال أدون عليه انتصارًا ما.. أي انتصار هزيل.. لكنني لم أجد. واكتشفت لحظتها أن جسدك كان متعبا وعجوزًا كالصفصاف.. كنت أنا آخر ملوكك وأتعسهم حظا.. وكان الإزميل الذي ورثته عن جدي.. صدئا.. ومثلوما..

٢

كانت يدها كثيرة الخطوط. أخبرتني أنها ذاقت من الحياة الكثير.. وأنها برغم الابتسامة الواسعة لم يتح لها - ولو لمرة واحدة - أن تختار بحرية مطلقة. لم تحبني كثيرًا. لكنني أحببت كل عضو من أعضائها بطريقة تقترب نوعا ما من الهوس الصوفي. لم يكن في وجهها المستطيل ولا في جبينها الناصع. ولا حتى في عينيها المضيئتين القلقتين ما يوحي بمدى مرارة هذه التجارب. لعلها اختزنت في يدها الآثار، ما هذه الخطوط إلا شذرات الأحلام المجهضة، والأمنيات الغريبة.

وبرغم أنها قالت أكثر من مرة أنها تشعر بمدى قصر عمرها وأن هناك مرضا خبيثًا يلتهم لحظاتها القليلة. وبرغم ذلك كان خط العمر طويلًا. يمتد من منتصف حافة الكف تقريبا. ويستدير منحنيا على حافة سمانة اليد. وعندما يصل إلى حد الرسغ يتكسر إلى شرط صغيرة ما تلبث أن تمحى. عمرها كان طويلًا حقًّا. لكنه متقطع. ممتلئ بالفجوات المؤسفة، إلا أن الخط كان يحمل شيئا أشبه بالرثاء الدائم. شيء من حيرة النورس وهو يرف للمرة الأخيرة.

أحيانًا كانت تود أن تفكر بمفردها. لكنها ظلت دائمًا عاجزة عن اتخاذ أي توقف جاد، لم تحب ولم تكره، وكان خط الأفكار وهو يمتد عرضيا بأعلى الكف غائرا لكنه متشعب وذبذباته قلقة متكسرة. رقصة غريبة فوق خيط رفيع، أحبتني.. لم تحبني؟ لم أدر.. لعلها أيضًا لم تدر.. كانت آلامها نوعا من النضوج الممزق. يقول الخط الغائر إنها عرفت الكثير. وتقول الخطوط الصغيرة المتشعبة إنها كم تألمت بهذا الكثير..

قلت لها ضاحكا ستكون لك ثروة كبيرة.. لم تعرف أبدًا قيمة النقود الفعلية، وكانت تحس بالذنب عندما تملك منها كمية فوق العادة، لكنَّ «جزيرة الرزق» المثلثة وسط الكف، يحدها من أعلى خط التعليم العرضي وخط العمر في انحداره المتكسر.. جزيرة كبيرة لا تقسمها الخطوط السطحية. قالت لا أريد شيئًا، قليل من الراحة وبيت بعيد عن العيون، ولكن «جزيرة الرزق» كانت مفعمة بالنزوات وطعم

الأحلام الملونة. أضافت أنها ستعطي ثروتها للأطفال.. اعترضت.. قلت لها إن أطفال العالم مجرد أشرار صغار.. كانت تكرهني بحق عندما أبدل طبيعة الأشياء الحلوة.

لم تكن تعلم أنها طموحة. ذلك النوع من الطموح المرهف. لكن خط التعليم في التقائه مع خط العمر عندما ينفرج عرضيا حتى يقسم الكف إلى نصفين يتخطى حواجز الزواج والمرض والآلام الصغيرة. وينتهي متقوسًا حادًّا مصرًّا. وهي تسعى نحو ذلك سريعًا. حتى إنني كنت أخشى عليها من توهج الشهب الساطع المفاجئ. بعدها تتحول السماء إلى فحل أسود يائس، وتتسع ابتسامتها الحلوة العذبة وأنا أخبرها أن في جانب يدها خطوطًا بعدد التجارب العاطفية الفاشلة. ولعل لي أحد تلك الخطوط الضئيلة. قلت لها: تلك الأظافر المنحنية إلى أعلى تعني الإرادة القوية. وكنت أعرف ذلك عندما تتحول نظراتها إلى برود كالثلج. وكان الثلاثاء هو أسعد أيامها، أضافت ضاحكة أنها ابتسمت لنفسها في المرآة هذا الصباح، ونادرًا ما تكون راضية. كان في الكف أشياء كثيرة.. عن الأولاد مثلًا.. عن الأمراض والأصدقاء ولحظات السفر والفراق، لكنني لم أخبرها بشيء، كنت فقط أود لو أرى شيئًا يخصني.. يخصني وحدي.. لكنني تهت بين التشعبات القلقة.

٣

في منتصف الكوبري شاهدت الرجل العجوز، كانت المنصورة ساكنة تكسوها سماء من المخمل العتيق المترب غاية في الحزن. قال لي:

- لا تثق بأحد.. انظر إليَّ (أشار إلى أحد الندوب). لقد خسرت كل شيء.

سألني عن الوقت. نظرت سريعًا إلى ساعتي وذكرت الوقت خاطئًا. لم يلحظ أو يبالي.. واصل القول:

- المصيبة أننا لا نتعود الحزن.. ولا نستطيع التخلص منه أبدًا.. يبقى دائمًا كهذا الحجر.

أشار إلى الحجر الجيري تحت قدميه. كان للحجر نفس حجم الكلب الصغير تقريبًا. سألته عن عمره..

- ياه.. زمن بعيد ونحن نأكل معًا.. وننام معًا..

قال الجندي الذي يقف دائمًا لحراسة الكوبري:

- لا أستطيع أن أمنعه من إلقاء أي شيء.. فقط ممنوع إلقاء القنابل.

ضحكت بجفاف، ولم يتأثر العجوز. أمسك الكلب في حنان بالغ. أخذ يلف الحبل حول بطنه لفات متتابعة.. مرة واثنتين وثلاثًا. والكلب مستسلم في سرور. غاصت ضحكة الجندي.. قال ببرود حاد: لماذا؟ أجابه العجوز دون أن يلتفت:

- الأيام غدارة.. كل شيء غدار والله..

بدا الجندي كئيبًا. عاود العجوز سؤاله عن الوقت. أجبته صحيحًا هذه المرة. لم يلحظ أي تغيير، كنت أعاني من بعض المتاعب وأنتظر القطار حتى يذهب بي بعيدًا عن المنصورة. لم أكن متأكدًا من أن حزني سوف يهدأ. لكن لم يكن أمامي إلا الابتعاد..

عاود الجندي سيره النشط فوق الكوبري. بنفس العناية بدأ الرجل يلف الطرف الآخر من الحبل حول الحجر. رفع الكلب نحوه وقد تدلى لسانه. توقف بعض المارة وألقوا تعليقات غاضبة. عاد الجندي وفرقهم بسرعة.. وهذا زمن حرب لا ينتهي. لكنه تركني.. وقف بجواري وقال بود:

- ألا تشعر بخوف؟ أنا أشعر بغثيان. قد يظهر عفريت الكلب ويظل يعوي طوال الليل.. هه..؟

خيل إليَّ أن القطار يدخل محطة طلخا وهو يئن مجهدًا. لم أتحرك. انتهى العجوز من ربط الحبل.. شده ليتأكد من متانته.. أخذ يداعب الكلب بحب معتاد. غرس أصابعه خلف أذنيه وتحت إبطيه. قفز الكلب فوق صدره وأصدر صوتًا رفيعًا. زعق الجندي فيه:

- لماذا لا تنتهي؟

حمل العجوز الكلب ووضعه على حاجز الكوبري. تراجع الكلب.. أفزعه سكون الماء المترقب، وهو يقشعر عن مويجات صغيرة متتابعة. أحاطته يد العجوز ومنعته من التراجع. سألني عن الوقت للمرة الثالثة، لم أجبه. كان يمسك الكلب بكلتا يديه والحجر على الأرض.. قال متوسلًا:

- ساعداني.. ارفعا الحجر..

رفضت. رفض الجندي وكان مختنقًا. قال العجوز موشكًا على البكاء:

- أنتما لا تعرفان.. ليس هناك مفر..

تجمع المارة. لم يتحرك الجندي أنزل العجوز الكلب. هز الكلب ذيله مسرورًا. رفع الحجر أولًا ووضعه على السور ثم عاد ورفع الكلب يبدو أن الكلب في هذه اللحظة فقط قد فهم كل شيء. ابتعد الجندي. دخل القطار المحطة بالفعل.

دفع الرجل الحجر.. بوغت الكلب عندما جذبه الحبل على حين غرة. عوى عواء مبتورًا. وحفيف الهواء يصدر صوتًا كالسوط استمر المشهد عدة ثوانٍ لأن الحبل كان طويلًا. طفا الكلب للحظة قصيرة جدًّا ثم غاص فجأة دون صوت. ولم يظهر، توقف الجندي بعيدًا وهو يعطينا ظهره، خيل لي أن العجوز يبكي، لكنني حين نظرت إلى وجهه لم أجد عليه أي تعبير، صفر القطار للمرة الأخيرة. أسرعت أجري. كنت واثقًا من أنني لن أستطيع اللحاق به.

٤

الكوبري الطويل المتقوس يصل بين ضفتَي النهر - النهر الفاتر مقطوع اللسان، عند الشلال الأول والشلال الثاني والثالث. المستسلم الكئيب الغائض بلا زبد. الزاخر

بالطفيليات، المسجى قتيلًا، يمر تحته خاشعًا - والكوبري ممتنع كالشاهد الخائن. تحوم حول أذياله ريح نوفمبر، وتدور حول أضلاعه الحديدية في زمجرات خفيفة.

كان الحراس بعيدين.. وكانت الشمس بعيدة.. وكان الله أشد بعدًا، الأعمدة النحيلة ذات الرأس الضخم مفقودة العينين.. وعندما يأتي الظلام، سوف يلفها ويلف النهر والعوامات والسمك الميت. وفي وضح النهار ستظل منتصبة تلقي ظلها على النهر بلا كبرياء ولا هزيمة.

السور الواطئ يمتد كلما امتد الكوبري - يعلو ويتقوس ثم يهبط - أعمدته المتتابعة الرتيبة بلونها الأخضر القاتم تختلف عن الحاجز الأفقي. كانت اللمسات البشرية، لمسات الرجال المتعبين وهم يحثون السير، والعشاق الصغار، والمتأملين النهر المنتظرين أبدًا، والنساء الخائفات، وحفيف أردية الجنود الخشنة.. كل هذه اللمسات أزالت اخضراره القاتم وأعطته لمعة خاصة، فيها القليل من صدأ الحديد والكثير من دفء الحياة، الرصيفان الضيقان مقسمان بالأبيض والأسود يحصران أرضية الكوبري من كل جانب. الأرضية نفسها برغم أنها مصقولة لا تبدو لامعة الوجه كما يجب. كانت ميتة تحت وطأة الصمت. تركها صباح اليوم الفائت مترقبة مثخنة. تحمل على طول امتدادها كتل الأحجار وبقايا الفوارغ المعدنية مثقوبة الجوانب.

من ناحية الضفة اليمنى لا يوجد إلا القليل من الأحجار المتاثرة. معظمها صغير، لكن ما يغطي الأرضية حقًّا هو قصاصات الورق السميكة ومزق اللافتات المكتوبة بالطلاء. كانت كلماتها ضخمة، حروفها واضحة، لكنها لكثرة ما تمزقت، ولكثرة ما داستها الأقدام الخائفة والأقدام المطاردة القاسية لم تعد تقرأ على الإطلاق.. هناك أيضًا بقع ضئيلة من الدم، ذائبة في جهامة الأرضية. لكن ذلك لم يمنع الذباب من أن يحط عليها بلامبالاة للريح أو للحراس..

في المنتصف.. تتكاثف قطع الأحجار إلى حد كبير تظهر ألوانها وأشكالها المتنوعة. الزلط الصغير الأصفر. قطع الأحجار الجيرية لونها مطفأ. شظايا من البازلت الأسود، أطرافها حادة وسطحها خشن. أجزاء من قوالب طوب البناء الأحمر وقد تناثرت فوق الأرضية، إنها جرح ينزف. قطع القرميد الأرجواني القاتم وقد فقد زهوه السابق. بين كل هذه الأنواع - سواء في الوسط أم أعلى الرصيف - تناثرت الفوارغ المعدنية المثقوبة الجوانب كأنها عيون مبحلقة تبدو ذات خطوة خاصة.. لا تحمل - مثل بقية الأحجار - ذات الطابع العفوي.. لكنها أكثر قربًا من نية الغدر المبيت..

وسوف يأتي المساء. حالًا أو فيما بعد ولن تضاء المصابيح، سيأتي الكناسون محنيو الظهور، يأتون بالأمر ويذهبون بالأمر. يزيحون هذه الأحجار والفوارغ كأنما يخفون عارًا. لن يلقوها في النهر. لأنهم لا يودون تحريكه وإيقاظ مويجاته الغافلة. تحسي الطحالب المحنية الرأس. يريدونه كذا: غائضًا، فاترًا، مستسلمًا كالأجنة. سوف يحملون الأحجار إلى أماكن لا يعرفها سوى الحراس، وسيعتقدون - الحراس والكناسون - أنهم قد أخفوا كل شيء وأعادوا للكوبري نظافته الزائفة.

٥

القلعة.. بئر يوسف.. منتصف الطريق نحو القاع المظلم.. نحو الماء العطن..

قالت لي لاهثة:

- كلا.. سوف نتوقف هنا..

كنا مرهقين من كثرة النزول والانحدار. نظرت إلى أعلى حيث فتحة البئر.. السماء التي تغطيها وتغطي القلعة وتغطي مصر كلها، باهتة وبلا لون. مجرد دائرة بيضاء باهتة، قالت وهي تستند على الجدار الحجري الخشن:

- الجزء الباقي من البئر مظلم خطر، السلالم مشققة ولا سور لها.

الرجل ذو الشارب ما زال يدفع زوجته أمامه. بدا لي أبله بدرجة ما. الزوجة الصغيرة مرعوبة من خشونته ومن جهامة الأحجار. نظر الرجل نحوي. توقف معتذرًا:

- لم نرزق بأبناء بعد.. (ضحك).. أريد ولدًا..

ضحكت الزوجة بتردد لعله يلين. لكنه واصل دفعها..

قالت وهي تعدل خصلات شعرها:

- ياه.. كم كان الأمر متعبًا.. لا أدري لم طاوعتك!

كنا نصعد معًا سلم القلعة. نمر خلال البوابات الحجرية. نرتاح جنب قبر الوالي التركي في المسجد.. نتأمل بيوت القاهرة المرتعدة المتصفة. صخور المقطم الضخمة. البائعون يلاحقون السياح كالذباب. الطيور المطاردة. الحرس المرتابون. بائعو الحنة والبخور. تلمس يدي وألمس يدها. وفي أسف القلعة تجري صفوف النمل حتى تلحق بآخر المواصلات وآخر فرص العمل وآخر فتات العيش. وتلفح الريح وجهي فأوشك على البكاء. تحول قصر الجوهرة إلى كومة من الأخشاب المحترقة، والقلعة إلى سراديب غامضة والسياح إلى مومياوات تأمل في كل شيء ببلاهة.. قلت فجأة:

- سوف أنزل النصف الباقي من البئر.

نظرت إليَّ في دهشة غاضبة: وحدك؟

- وحدي..

لم نتناقش. ترك الرجل زوجته وبحلق فيَّ قائلًا: يا أفندم لم يعد..

لم يكمل، سرت إلى الفتحة الضيقة، تمنيت أن ألتفت وأرى عينيها قبل أن أهبط، أرى تعبيرات وجهها. كنت واثقًا بطريقة مبهمة من أنها لا تحبني، لذا لم ألتفت.

مستني رعدة وأنا ألمس أول درجة، تصاعدت من قدمي إلى عيني وأحسست بالرغبة في البكاء. هبطت الدرجة الثانية والثالثة والرابعة، وأصبحت داخل البئر.

وحدي كما لم أكن من قبل. ثمة ضوء يتسلل من الفتحة ينير التفاف الدرجة الأول، أما بعد ذلك فلا شيء. ظلام ثقيل مشبع بالرطوبة يحاصرني، وأنا ألتصق بالجدار، تتحفز أحجاره تحت أصابعي كالمخالب. أهبط درجة فدرجة. سوف تتصرف هي الآن. تهز كتفيها بلا مبالاة، ويأخذها أي أتوبيس سياحي غامض. ثم تكبر بطن الزوجة الصغيرة. تمر عليها شهور الحمل وتفرخ خفاشًا كبيرًا يهوم في ظلال البئر. وتأتي أعوام الجفاف. سبعة أعوام.. عشرون عامًا.. وما زال النيل يغيض. تحرق الشمس قيعانه الطحلبية وينشر عفونة الأسماك. وأنا أهبط، قد لا يكون هناك طريق للعودة. أسمع صوت أنفاس أصداء موحشة ترددها الجدران الأربعة. أسمع دبيب أقدامي. خطو غريب يدق حولي ثم يقودني إلى حيث لا أعلم. لم أعد بحاجة للشمس. هذا الظلام هو خجل السنوات العجاف كلها. وهذه الأرض الشراقي تسكن أخاديدها الفئران. أهبط الدرج عاجزًا عن عدها. والهواء الراكد يرسل داخلي إحساسًا بالشيخوخة. يزيد من تجاعيد وجهي ومن خوفي من دائرة الضوء البعيد. من السماء التي لا لون لها، ومن حفيف ثياب الحرس السميكة.. تعودت عيناي الظلمة. لم أر تفاصيل البئر. لكني أحسسته يتشكل أمامي. أحسست أبعاد جدرانه بالمسافة التي هبطتها والتي في انتظاري. أحسست أنني لو هبطت للنهاية ربما أمكنني العودة ولو أنني توقفت في المنتصف القاسي ربما سقطت. ربما تجمدت حتى تزيحني خطوة القادمين الجدد. زادت سرعة هبوطي درجة.. درجتين.. لا أرى. أشعر بالماء يقترب، ماء النيل القديم، عندما حملته جرار سيدنا يوسف للمرة الأولى، عندما حاول أن ينقذ مصر من العطش ومن الجفاف، بعد ذلك لم يعد قادرًا على الحلم، ولا على تفسير الرؤى، بعدها غيّر النيل مجراه وازدادت وطأة الجفاف.

انتهى الجزء الباقي من الدرج. أصبح الماء أمامي. ماء الفراعنة القدامى، جلست على الحافة الحجرية ومددت يدي في حذر. ظلت تغوص في الفراغ المظلم حتى لمست السطح البارد. ارتعدت. أصدرت المياه صوتًا خافتًا كأني أيقظته من الموت. أرجعت يدي بسرعة، لو أنني بكيت الآن فلن يراني أحد. لن تراني هي ولا الزوجة الخائفة ولا السياح. انزويت في الجدار أكثر. أصبحت ضئيلًا لدرجة التلاشي.. بدأ الهواء في التحرك ومويجات الماء تصدر أنينًا خافتًا. فتحت عيني أو لم أفتحهما. نهضت أو لم أنهض. صرخت، تكلمت، ازداد صمتي. لم أدر، كان نبي الله يوسف جالسًا وسط الماء الراكد عاريًا. يبدو جسده الأبيض النحيف شاحبًا لدرجة الزرقة. ضامًّا يده إلى صدره. مكومًا ساقيه حتى أوشكت ركبتاه أن تلمسا ذقنه. وحيدًا وسط فراغ البئر. ميتًا حيًّا.. يبكي في نحيب خافت..

٦

فاجأني منظر المرأة. ضحك صديقي وهو يدفعها عبر الباب للداخل:

- أعرف أنها ضخمة.. لكن هذا النوع الأفضل للنحاف من أمثالك.

ضحكت هي. بانت تجاعيد وجهها. كانت كبيرة السن أيضًا. أغلق صديقي الباب. سمعت صوت أقدامه وهو يهبط مسرعًا.. ظلت تبحلق فيَّ مبتسمة. لم تكن تسخر

مني بلا شك.. سارت بتمهل.. قالت كلمة أو كلمتين عن الشقة. سألتني عن اسمي. ضحكت فجأة بصوت عالٍ ممطوط، جلست على حافة السرير وهي تقول:

- أليس عندك ما يشرب؟

وأنا أسير خلال برد الليل. غاصت في ضلوعي أطراف الأغصان الجافة.. أدهشني أني عاجز عن الحلم وعن الرغبة في التحول. أدهشني أنني متخم بالذكريات المبتورة وورق الزهر وبقايا السجائر.

ضحكت المرأة حين رأتني أحمل كوب الشاي. كانت قد خلعت ثوبها الخارجي ووضعته بعناية فوق مقعد جنب السرير. قميصها الداخلي رث. تمامًا كأجزاء جسدها التي تظهر من خلاله، هكذا إذن. انطفأت أقماري الملونة. ودعنا بعضنا البعض منذ شهر وأصبحت الأيام مالحة. مزقت صورتها هذا الصباح. آخر ما تبقى منها هكذا إذن. جلست المرأة على حافة السرير. سألت وهي ترمقني بطرفَي عينيها إن كانت هي المرة الأولى؟ هكذا إذن، تنحسر الشمس عن أعضائي العارية وتتركني رمادًا معتمًا. قلت لها: ما اسمك؟ قالت اسمًا ما - مزيفًا.. سألتها: ما سنك؟ قالت رقمًا ما - مزيفًا.. سألت عن بلدتها.. تمهلت قليلًا حتى عاودت السؤال.. أجابت بغتة كأنما تطعنني: أنا من السويس.

توقفت أصابعي وهي تفك ثالث أزرار القميص. تصاعد خيط بخار الماء فوق حافة كوب الشاي.. تلوى ببطء. ارتاح كل جسدها فوق السرير، وبدت فخذاها الضخمتان توشكان أن تمزقا القميص الرث. قلت: ماذا؟ وأحسست بالبلاهة.. رددت الاسم مرة أخرى. نظرت نحوي مهتمة للمرة الأولى منذ بداية الليل. سألتني بشدة:

- هل أنت من السويس؟

نفيت ذلك. ضحكت حتى أؤكد نفيي. كنت فقط قد رأيت السويس.. عرفت صورها غير الملونة. كنت فقط أعاني من حالة خاصة غاية في الخصوصية. مؤداها أنها تركتني. وثقت بها وحلمت بها، ولكنها تركتني. قالت كثيرًا من الأسباب التي لم تقنعني. وكانت السويس هناك. خلف عشرات الكيلومترات الصحراوية الموحشة. خلف الأسلاك والألغام والغابات المتحجرة. أبعد ما تكون عن غرفتي بالدور الثاني. عن سريري الخشبي الذي اشتريته بالتقسيط لم تكن أكثر من مدينة نائية بها الكثير من الأحياء الفقيرة والناس الفقراء.. القليل من النساء الجميلات والأطفال غير مكتملي النمو.. لكني قلت لها:

- هل تعني السويس شيئًا خاصًّا؟

كانت حزينة، خائفة من أن يزيد الحزن عدد التجاعيد في وجهها.. قالت بسرعة: الماضي فقط.. السويس تعني ماضيًا لا طعم له..

كنت أخشى أن تراني عاريًا.. نحيلًا. كنت أكره قفصي الصدري الضيق، وانحناءه المحدب إلى الأمام، وساقي التي يكسوها الشعر المشرئب. كنت أخشى أن تضحك. لأنها بلا شك قد عرفت الكثير من رجال السويس والأماكن الأخرى.. قلت متأسيًا فجأة: لم أعرف السويس جيدًا..

أدركت أنني أكذب. أنني كلما تناولت طعامًا في الصباح أو في المساء أوشكت أن أتقيأ.. ذلك الصديق عندما حاول أن يملأ جروحي بالرماد زاد من حدته. كنت أعرف السويس جيدًا. مثلما أحببت للمرة الأولى. مثلما انتهى كل شيء بغتة، مثل المصابيح الخافتة والزجاج المطلي باللون الأزرق والزيجات السريعة وإجازات الساعات القليلة وهي تضيع في المواصلات. والوعود واللهاث. عيون الجنود. مانشيتات الجرائد. موجز النشرات. حقائب المهربين لحظات الحب الميت، الصورة التي كانت آخر ما مزقت الشعارات المختلفة عرفتها جيدًا. كانت تضاريس الشوارع هي تجاعيد الزمن فوق فخذَي المرأة، والبيوت المهدمة هي ملامحي وأسناني التي لوثتها السجائر. كذبتي اليومية.. شاي اصطبحاي البارد..

وجدت المرأة تمسك الصورة تتأملها بنفس الهدوء الساخر.. أصابني الرعب. خطفتها من يدها.. علقت هي بهدوء: فتاة حلوة.

قلت مخنوقًا: من أين أتيت بها؟

أجابت ببساطة: كانت تحت الوسادة..

كنت قد مزقتها هذا الصباح. قطعت أوصال هذه الملامح، قتلت ابتسامة التصوير الزائفة. أدرت ظهري وحسبت أنه يكفي أن آكل بشهية. أقرأ جرائد اليوم بلا اهتمام. أنام نومًا عميقًا دون أن أحلم، أنتظر العلاوة.. و.. و.. لكن الصورة.. والسويس.. والمرأة العجوز مستندة على وسادتي. نائمة على سريري.. لا زالت قادرة على الكلام.

- لا تكن كئيبًا لهذه الدرجة.. أطفئ النور وتعال جانبي.. هذه أولى تجاربك، أليس كذلك؟

٧

دفعت التيارات جثتي إلى أعلى. كانت متيبسة ومفرودة حتى إنها استطاعت الطفو. وكانت أصابع يدها متقوسة - قابضة على حفنة من طين القاع والطحالب الرخوة. لكن الماء أذاب كل شيء، وبقيت أصابع جثتي متقوسة - قابضة على لا شيء.

لمست الشمس الماء والشاطئ. وظلت جثتي طافية فوق السطح. شاحبة زرقاء، يتسرب الماء حول أعضائها النحيلة ويدفعها أمامه، نظيفة كما لم تكن من قبل، عالقًا بقدميها بضع من الأعشاب الموحشة. تبحلق المدن الصغيرة في جثتي ببلاهة، دون أن تتعرف عليها. وجثتي - قديمًا - كانت تعشق كل تلك الأشياء. تتشهاها بلهفة العمر القصير، ورقة الساعات الوجيزة. فيما تمضي أيام الموت. فيما تمضي الأحلام. وفيما يغرد طائر مقصوص الجناح.. كأنه ينعي جثتي بلا مقابل.

وجه جثتي دائمًا للسماء - السماء العتيقة متناهية البعد كأنها أكذوبة - كانت مزمومة الفم. زرقاء الشفتين زرقة حالكة. بوجنتيها آثار حَب الشباب. تملؤها المياه وتجففها الشمس. الحدقتان مفتوحتان، بقية الجسد الظاهر سليمة ناصعة. الجروح كلها في

الظهر طولية متجاورة.. زال لونها وذاب ما فيها من دماء، فبدت وكأنها شفاه مفغورة رعبًا.

تغيب الشمس ولا تنأى جثتي عن السفر. لا تنأى عن عبور الشواطئ التي تنكرها والتي حلمت هي دومًا بأمنها الزائف. بساكنيها المنكسري العيون. الخائفين لسعة السياط وأرقام جباية الضرائب، حلمت جثتي ببيت صغير وسط الخضرة، ليست به غرف داخلية ولا حواجز. مجرد صالة واسعة تضم كل الحاجيات اليومية والكتب، وقصاصات المشاريع المؤجلة. تواصل جثتي السفر. تفقد ملامحها وحدة خوفها. حتى مرارة الغدر يشكلها الماء طوفًا مجمدًا عابرًا.

وفي يوم ما، دفع التيار جثتي قرب الشاطئ. لم يكن أحد هناك، وظلت تقترب حتى التصقت كتفها اليسرى بلسان طيني ممتد. دفعها التيار فازدادت التصاقًا. أصبحتا كأنهما كتلة واحدة لا يفرقها سوى اللون. كانت في الطين أملاح وبذور وجذور مختبئة. لكن ذلك لم يمنح جثتي نبضة واحدة. ظل لونها يزداد قتامة وأعضاؤها تزداد ضمورًا. ويومًا بعد يوم، تصبح الأوردة الزرقاء حتى الجلد كأنها حروف مهشمة، عاودت التيارات دفع جثتي إلى منتصف النهر، وظل الطين ملتصقًا بها لفترة.. حتى أذاب الماء - كالعادة - كل شيء..

طوال هذا السفر لم ير أحد جثتي. أو أن أحدًا رآها ولم يعر الأمر اهتمامًا. ولقد حاول أبو جثتي وأم جثتي البحث عنها. ذهبا إلى أقسام البوليس والمستشفيات. وسألا الأصدقاء. لكن الجميع التزموا صمتًا مطلقًا كأنهم يخفون عارًا أو جريمة.. وعاد والدا جثتي عجوزين فوق العادة. تأملا الغرفة الساكنة والكتب الكثيرة والراديو نصف المهشم فارغ البطاريات. تأملا أوراق جثتي بحروفها المنمنمة الصغيرة. وقمصانها المعلقة على مسمار فوق الحائط. والحذاء القديم جنب المقعد. تذكرا فجأة حزنهما المتكرر وهما يريان جثتي تقرأ وتكتب وتردد الكلام المحظور. تذكرا فرحتهما عند مجيء كل صباح عندما يريان جثتي ما زالت في الفراش تعاكسها ساعة النهوض ولا يعجبها فول الإفطار. هجمت على ذهنيهما المتعبين آلاف الذكريات والعذابات الصغيرة، فانزويا في أحد الأركان عاجزين - معًا - عن البكاء. ومن بعيد تعالى صوت فيروز وهي تغني.. دائمًا فيروز تغني من بعيد.. رفعا رأسيهما وأنصتا معًا. وكان في نبراتها المعذبة شيء من الرثاء، وشيء من السلوى.

دارت دوامات النهر بجثتي. دارت جثتي حول صخرة نائية. حفت بها ثم واصلت الطفو ببطء. اقترب المصب وأصبحت تيارات النهر غاية في الوهن. لكنه في منتصف يوم ما، انفجرت بطن جثتي. ظلت غازات العفونة تملؤها وتضغط جدارها المتيبس المبلل حتى انفجرت. خلال كل هذه الرحلة، وجثتي تؤكل من الداخل يذيبها النهر بضراوة ناعمة. حتى إن بطن جثتي انفجرت ووقفت مكانها برهة وجيزة، ثم غاصت فجأة. حتى إن الهواء زام في رضا وأخفى النهر لقمته السائغة. حتى إن الضفة المشرئبة والأرض البور لم تظفر بشيء. حتى إن الأسماك شعرت بالاشمئزاز للمرة الأولى فابتعدت. حتى إن القاع كان مظلمًا مظلمًا.. باردًا باردًا.. قاسيًا قاسيًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

مَن الذي قتل مريم الصافي؟

س: أين كنت عندما حملت المياه الجثة إلى الشاطئ؟

جـ: لا أستطيع أن أقول يا بيه.

س: هذا محضر رسمي، ويجب أن تتكلم.

جـ: كنت خلف الأشجار، أفعل مثل الناس.

اشتم صلاح رائحة الجثة المنتفخة بالمياه. توحدت العفونة ورائحة النهر والفضلات العائمة والروث وأكوام السباخ، وامتد النهر الداكن وربض الجبل على ضفته الغربية. دق العسكري الأرض يؤدي التحية. وانحنى الحصان يبحث عن العشب فوخزته الأشواك البرية. ضرب العمدة كفًّا بكف. وأخفت غيطان النخل الناس والبيوت والمقابر، وهبت ريح الموتى. هذه هي الجثة الخامسة واليوم الخامس والساعة الخامسة. خلق الله النهر والموت والفلاحين والبهائم والشمس وترك صلاح تستبد به الحيرة.. أشار لبقية العسكر:

- غطوا الجثة حتى تأتي النيابة والطبيب الشرعي. لا تحركوا شيئًا عن موضعه.

همهم العمدة بصوته الأجش كأنما يحدث نفسه:

- بلدنا طول عمرها ناسها طيبين.. لا أدري من أين جاء هذا البلاء!

فكر صلاح. الآن تغرب الشمس وتتركني وحيدًا. وسط ثرثرة الضفادع. ودبيب الفئران وعواء الضباع. وهي تجوس خلال المقابر. قال مهددًا:

- يا عمدة أنت المسئول، هذه خامس جثة وأنت لا تقدم أي معاونة.

- يا حضرة الضابط، هذه جثث غريبة لأناس غرباء، ولا صلة لبلدنا بهم.. إنهم طرح البحر..

- لقد فشلت في التعرف على أي جثة!

- لأنها منتفخة ومشوهة يا بيه..

خمس جثث. ثلاثة رجال وامرأتان. كلهم عرايا. قتلوا أولًا، ثم ألقوا في النهر. والنهر يسير ساكنًا شديد البراءة. هادئًا بالغ الحكمة. والفلاحون صامتون. عيونهم المتلصصة تجعل عددهم مضاعفًا. تنصب شراك التستر.. هل يحمل النهر كل هذه الجثث بمحض المصادفة؟

س: هل تستطيع التعرف على هذه الجثة؟

جـ: لا يا بيه..

س: منذ متى تغيَّب أخوك؟

جـ: ذهب للبندر منذ أسبوع.

س: ألا يوجد أي شبه بين هذه الجثة وأخيك؟

جـ: لا أعرف يا بيه.

إن الليل لهم. يشعلون مواقد الحطب والجلّة والقوالح، فيهبط الليل سحابة كثيفة من الدخان.

صلاح على جواده يتبعه اثنان من العسكر. يهتفان في فزع عند ظهور أعواد الذرة الشامية:

- يا حضرة الضابط. هذا أوان «الشامي» والطرق خطرة.

حتى القمر يبدو كالجثة العارية. كيف يمكن مطاردة القتلة وهذه أرضهم؟

ما أشد كثافة «الشامي»، وأطول قصص الثأر! يهتف أبوه: أنت ناعم مثل أمك. الحياة العسكرية لا تصلح لأمثالك.. يشد قامته ويضم قدميه.. تمام يا فندم. كان أبوه واقفًا في صالة البيت، مرتديًا حلته العسكرية كاملة وكل طبقات النياشين. إن الليل لهم. بالغ الظلمة. تعلق ذراته السوداء بالثياب.. وتضيع الحقيقة خلف ملامحهم الجامدة وأرضهم الجافة. في الغيطان والبيوت، في مجالس الشاي. وفي أكواخ البوص. يتبادلون سنة الأفيون. ويصنعون الأسلحة النارية من بقايا المواسير والأسلاك والخشب. كل يحمل سلاحه القاتل باعتزاز، كأنه عضوه الجنسي، ويرمي النهر بالجثث. يبعث صلاح بالإشارات المتوالية لكل القرى على امتداد النهر، والإجابة لا تتغير، الأمن مستتب. لا أحد غائب، لا أحد مفقود.. والليل لهم، قتلة ومقتولين. وخلف وداعتهم الساكنة يربض الحقد البدائي. صلاح يلهث. يقتحم البيوت. يهدد الرجال والنساء. تأتي النيابة وتذهب النيابة. يضع المشتبه فيهم في الحجز. يصادر الأسلحة ويحرر المحاضر القاسية.. دون جدوى.. حتى سلطان عامل المياه ومرشده داخل البلدة. يقدم كل ليلة تقريرًا.. لكن الليل لهم. والتقارير حافلة بالريبة وخالية من الأدلة. صلاح وحيد وسط البلدة الواسعة. نقطة البوليس ضئيلة مبنية على الطراز الإنجليزي يغطيها قرميد أحمر. وسوف ينام صلاح ويصحو غدًا ليستقبل الجثة السادسة. قال العمدة:

- لن تتصرف وأنت غاضب منا.. لا بد أن تأتي معي للعشاء..

همهم في قرف: ضرب الحصان الأرض بحافر في تحفز، وأصر العمدة على دعوته:

- تناول معنا الشاي إذن.. سوف أجمع أعيان البلد وتتحدث معهم قبل أن تأتي النيابة.

كان صلاح يحتقرهم.. ولكنه كان مرتبطًا بهم وبروث البهائم وبعيدان الحطب الجافة فوق الأسطح.. خلع أحد العساكر حزامه وأخذ يضرب جموع الرجال والأطفال.. تمتم صلاح:

- لن ينصلح الأمر حتى تأتي قوة من المركز وتحاصر البلد.

- يا سعادة البيه. القتيل الذي لا «دية» له، لا قيمة له.

أحاط أعيان البلدة بصلاح. العمدة ونائبه، وشيخ البلد وشيخ الغفر. حمحم الحصان وعلت أصوات الطيور الجارحة وهي تصرخ. منزل العمدة مبني بالطوب الأحمر. طلاؤه فاقع وسط بيوت الطين. لا يلتصق به بيت ولا يعلو قامته بيت. قفز العمدة يتقدمه على الدرج:

- اتفضل يا سعادة البيه. وسّع يا ولد، وسّعي يا بنت.

فكّر صلاح: هذه الجلسة السخيفة وأدوار الشاي الثقيل! جلس في صدر المجلس. تبعته رائحة العفونة. جلس العمدة على أريكة موازية. جلس بقية الأعيان على كراسي متفرقة وجلس الفلاحون على الأرض. ووقف الغفر عند الباب. وألح العمدة كالذبابة: العشاء العشاء.. رفض صلاح. تأمل وجوههم الداكنة: أهذه وجوه قتلة؟! يعرف أن القتل هنا يتم بسهولة ري الأرض الشراقي. لكنهم صامدون لنظراته وتهديداته. إنهم أكثر خبثًا مما يتصور.. قال بصوت مسموع:

- كل الجثث عارية. مطعونة بالسكين أكثر من طعنة. في البطن، في الظهر.. الحوض. لون الدم المتجمد متشابه. كلهم في وسط العمر هل عامت الجثث فوق النهر مسافة طويلة؟ هل كانت راقدة في القاع وطفت بعد أن تشبعت بالماء؟ لا أحد يعرف. لا أحد يعرف من حفر النهر ومده وسماه «بحر يوسف». عضلاتهم متقلصة. كلهم قاوموا بنفس الطريقة وماتوا بنفس الطريقة. النسوة كن نسوة. لم يغتصبن. الرجال عيونهم جاحظة وملامحهم فيها من الدهشة أكثر من الرعب. لم أر جثثًا بهذه البشاعة، ولا بلادًا بهذه الوعورة، ولا ليلًا بهذا الثقل. عندما أغفو أحلم بنقطة البوليس والسقف القرميدي يتساقط فوقي كالمطر.. هذا المفتش الإنجليزي كيف وصل إلى هذا المكان، وكيف لم يُصب بالجنون؟

صمتوا. ذابت ملامحهم الجامدة. توقف الغفر على الباب حاملين «صواني» الشاي الثقيل. طغت المرارة في أعماق صلاح. سوف يعود لأبيه ويقف أمامه منكسًا: لقد فشلت يا فندم.. فيصرخ فيه: أنت ابن أمك ولست ابني. وقبل أن يتحرك أحد من الجالسين رأى صلاح أباه يقتحم باب العمدة. يهوي بكرباجه على أقفية الجميع. ومن الخارج لاحقه صوت بروجي يردد نوبة «صحيان» من أجل إيقاظ كل الموتى. يقف الفلاحون صفًّا واحدًا ويأمرهم الأب «صفا.. انتباه». تحول العمدة إلى حصان يصهل بصوته الأجش المميز.. صاح الأب: مَن منكم القاتل يا أوباش؟ رفع كل واحد إصبعه. دمدموا بهدير من الاعترافات.. طرقع الأب بالكرباج وهوى به على وجه صلاح.. أهي ضربة سوط أم صفعة؟ قدم العمدة كوب الشاي.

- لا عليك يا سعادة البيه.. سوف تظهر الحقيقة وتعرف أن كل هؤلاء الناس أبرياء..

تجمع الكثير من أهل البلد. فلاحين وأجراء ومتعطلين ومشبوهين وأصحاب سوابق وعساكر.. حتى حفار القبور. كلهم يعرفون إلا هو. هذه الجثث لم تأتِ من بلدة أخرى. كانت رابضة هنا.. داخلهم وفي جوف النهر المتواطئ..

انتبه على أصوات شجار بالخارج؛ صوت امرأة محتد تسب الجميع. رفع العمدة رأسه محرجًا. توقف صلاح عن شرب الشاي. اتجهت رءوس الجالسين للباب.

دخل الغفير، نظر لصلاح وللرجال وللعمدة: إنها مريم.. قال العمدة: ماذا؟ سوف أخرج إليها.

لكن مريم بدت على الباب وهي تقول بصوت مرتفع:

- وهل تحسبني أخشى مجالس الرجال؟

انتفض العمدة، وضع كل هيبته في صوته وهتف فيها:

- عيب يا بنت.. اذهبي بعيدًا واجلسي وسط الحريم.

لم تهتز. وضعت يدها في وسطها وهي تصيح به:

- أنت لا تعرف العيب، كل ما تفعله هو أن ترسل الغفر ورائي، وأن تجيد نصب الشباك لي. اسمع، أنا أتاجر مع الجن الأزرق.. لكني آكل بعرق جبيني.. فاهم؟

فقد العمدة صوته. انزاح الجالسون جنب الحائط، وقفت هي في منتصف القاعة. فكر صلاح: إنها ليست منهم. واصلت التهديد:

- لا شأن لك بي، لا أنت ولا الغفر.. وها أنا أقول لك أمام سعادة البيه الضابط.

التفتت ناحية صلاح ورمقته بنظرة قصيرة، فاكتشف كم تبدو عيناها متألقتين. فكر مدهوشًا: يا إلهي.. أين رأيت هذا الوجه قبل الآن؟.. وقبل أن ينبس أحد بحرف استدارت وخرجت.

كان سلطان يخفي ابتسامة الرضا، وحفار القلوب ساهم، وشيخ البلد شامت، والعمدة تضاءل حجمه وذهبت هيبته. غمغم بعد برهة: «فاجرة». همهم الجميع يؤيدونه، ورمق صلاح يستجديه تعليقًا. لكنه كان يفكر بالرغم عنه في وجهها المحتقن الغاضب.. قال شيخ البلد:

- منذ أن تركها زوجها وذهب إلى ليبيا وهي طايحة في البلد.

قال شيخ الغفر في حمية وهو يضرب على بندقيته البدائية:

- لو أمرتني لأطلقت عليها النار في الحال.

قال صلاح بملل:

- كل الذين شاهدوا الجثة اليوم عليهم أن يمثلوا أمام النيابة.

أومأ العمدة طائعًا.. واصل صلاح:

- وكل مَن لديه سلاح غير مرخص، سوف يُسحب منه ويعاقب.

فرقع هذا التهديد ونهض. لم يكن للعمدة القدرة على استبقائه. اجتاز القاعة قبل أن يتمكن أحد من النهوض. صهل الحصان حين شاهده. وخفف هذا من مقدار تعاسته.. قال للعساكر: سوف أعود وحيدًا. امتطى الحصان ولكزه. أصبحت قامته أعلى من الأبواب، في موازاة الأسطح. ابتعدت الأرض الترابية القذرة. وظلت السحب بعيدة.

دار مع تقاطع الدروب. فكر! سوف أستدعي جنودًا من المركز، وأداهم كل البيوت دفعة واحدة.

في الشارع الرئيسي الذي يقسم البلدة، زامت الريح.. دفعت بقايا القش والعشب. تلاطم سعف النخل. رأى المرأة تسير أمامه في نهاية الشارع. برغم العتمة كان متأكدًا أنها هي. تسير بنفس الثقة التي تتحدث بها. تمهل بالجواد. وَقْع حوافره أشبه بالوجيب. مالت لجانب من الطريق دون أن تتوقف. ظل يتباطأ. يلح عليها بوقع السنابك، وعندما أصبح في موازاتها التفتت. أعطته نظرة أخرى متألقة. ومضة متفردة. لا يمكن أن تحمل مثلها نساء البلدة بوجوههن البلهاء. ولا الرجال العاجزون. صارمة وحنونة. فيها نفور ومشاركة.. هل تعرف مدى وحدته؟ أين رأى هذا الوجه قبل الآن؟

فكر أن يتكلم. انتظر حتى تتكلم. لكنها الريح تزوم. والجواد يحمله بعيدًا. والعينان تومضان أمامه. وعندما انتهى الشارع، استدار بالجواد دفعة واحدة. رآها واقفة أمام باب أحد البيوت. كانت توشك على الدخول لكنها انتظرت حتى يستدير. ظلت واقفة لبرهة. ثم دخلت ببطء. وسمع صلاح صوت إغلاق الباب. ورأى النخلات الثلاث تتلاطم بعنف. حقول واسعة. دنيا خرافية، ظلمة كثيفة ونجوم بعيدة الغور. قمر شاحب. نخل وجبال وترع ضحلة، وأسلاك تلفون تئز، وطلقات طائشة ووحدة باردة. نقطة البوليس وسط جذوع النخل. غابة من القضبان العمودية. والسقف القرميدي يشبه «كاب» المفتش الإنجليزي. فكّر: سوف أكتب خطابًا لأبي حتى لا يموت وحيدًا. ولابنة عمي حتى لا يضنيها الهجر كطالبات المدارس. يكتب بخط كبير لأن حروفه «المنمنمة» تتعب عينيها. تخفيهما بالنظارة، لم ير أبدًا لونهما.. وظل وجهها لغزًا. أمره أبوه. طبعًا. سوف تتزوج ابنة عمك. على الأقل مضمونة. أم تريد تكرار تجربة أمك؟ ضم قدميه وعدل قامته: تمام يا فندم.. العسكري «النوبتجي» نائم على المكتب. نهض فزعًا عندما خبط صلاح الباب. كله تمام. لم تأتِ مكالمات. كل الإشارات بالنفي. لم يشكُ أحد من غياب أحد. أمسك صلاح محاضر التحقيق. الأوراق تمام يا فندم وهذا هو المهم. أوراق.. أوراق. عشرات الأسئلة والأجوبة، محاولة عبثية للنفاذ تحت جلودهم. قلب الأوراق. الجثة الأولى والثانية والثالثة، لم يستدل على شيء..

س: أين ذهب زوجك؟

جـ: ذهب عند زوجته الثانية في البلدة المجاورة.

س: اتصلنا بهذه البلدة، وتبين أنه غير موجود!

جـ: لعله تزوج واحدة ثالثة في بلدة لا أعرفها.

س: متى كانت آخر مرة رأيته فيها؟

جـ: قبل أن يبصق في وجهي ويضرب الباب ويقول إن راحته في البيت الثاني.

س: هل شاهدت الجثث؟

جـ: نعم.

س: هل تعرفت على أي جثة من جثث الرجال؟

جـ: لا يا بيه.. زوجي يتزوج مرة واثنين وثلاثة لكنه لا يموت.

قال للنوبتجي إنه ذاهب لسكنه ولا يريد إزعاجًا. تمنى لو أنه يجد أقراصًا منومة، سوف يساعده هذا على اختصار ليلة أخرى كئيبة. في الأواني بقايا طعام بارد. وعلى المنضدة روايات بوليسية، قرأها أكثر من مرة وأصبحت ألغازًا. ساذج. استلقى على السرير بكامل ثيابه. جلس أبوه على الكرسي المقابل. وضع عصا الحكمدارية على ركبتيه وعوج طربوشه على ناحية. أخذ صلاح يسبح في بحر يوسف ويحاول تجنب الفضلات. أشعل أهل البلدة نارًا هائلة ألقوا فيها كل ما فوق البيوت من قش. ألقت مريم إليه حبلا مجدولًا من ألياف النخل. هتفت: تشبّث، كررت ابنة عمه كالأسطوانة المشروخة: أنت لا تحبني. لا تحبني. انطلق بالجواد فرأى الخضرة زاهية وسط البلح كالجمر. والجثث معلقة عارية على جذوع النخل وعورتها مكشوفة. برم أبوه طرف شاربه: سين سؤال، لقد ذهبت للصعيد، هل وجدت أمك؟ بكى الطفل الصغير: أمي ماتت، نهره الأب: إنها تعيش في مكان آخر مع رجل آخر.. رفعت مريم عصا غليظة وهوت بها على رأس العمدة. تحطم الرأس مثل إناء من فخار وخرجت منه عشرات الحشرات الزاحفة. سألته سعاد باهتمام: هل ذهبت إلى أحد البيوت المشبوهة؟ قال صلاح: أنت مجنونة.. كيف تفكر فتاة محترمة في هذه الأمور؟ ضحكت بصوت ذكّره بضحكة إحدى المحجوزات في قضايا الآداب. سار حفار القبو على حافة الترعة. تعلق بأغصان اللبلاب وأخذ يتأرجح ببطء شديد. حاول صلاح أن يتعلق بقديمه لكن دوامات الماء الداكن ظلت تجذبه. قال الأب دامعًا: عندما أموت سوف تكرهني، أليس كذلك؟ ضم قدميه وشد قامته: تمام يا فندم، غضب الأب. ضرب المنضدة ضربات غاضبة. تقافز كل ما فوقها من أوانٍ زجاجية. ارتعد صلاح وعندما استيقظ كان العرق يغطي وجهه، وهناك مَن يدق الباب..

نهض. أشعل «الكلوب».. بدأ سلطان على عتبة الباب يبتسم الابتسامة التي يجيدها المرشدون.. خليط من طلب الرضا ومن الإحساس بالذنب. قال صلاح مقروفًا:

- سوف أبحث عن شخص آخر غيرك. أكثر ذكاء وأكثر فائدة.

دخل سلطان. أغلق الباب خلفه كمن تعوّد هذا الاستقبال.

- أنا رجلك وخدامك يا بيه.

- لا تقل لي أي أخبار أو وشايات. لست بحاجة لغسيل البلد الوسخ.

- صدقني يا بيه الأمر هام هذه المرة.

أشار صلاح للمطبخ: اصنع لنا شايًا.

قال سلطان: أمرك يا بيه.

اختفى داخله. شعر صلاح بصداع شديد.. جلس ساكتًا وما زالت صور الحلم تلاحقه.

صنع سلطان الشاي. جلسا حول المنضدة متقاربَي الرأس والكلوب بينهما. أشعل صلاح سيجارة وأعطاها له.

- لا تخبرني عن أي شأن من شئون البلد.. هل هناك شيء عن الجثث؟

- هذا ما جئت من أجله؟

- إن لم تكن أخبارًا مهمة، فسوف أضعك في الحجز.

رشف سلطان الشاي بصوت مسموع، ونفث خيطًا من الدخان:

- أحدهم تعرف على جثة تخصه..

توقف كوب الشاي في يد صلاح: حقًّا؟.. مَن؟

ابتسم سلطان: الجثة الثالثة كانت لرجل.. أليس كذلك؟

قال صلاح: أجل.. أجل..

واصل سلطان بتمهل: زوجته تعرفت عليه. لم يكتشف أحد غيري هذا الأمر.

قال صلاح: مَن هي؟ هل أعرفها؟

قال سلطان: مريم..

هتف صلاح: مَن؟

قال سلطان: مريم الصافي.. المرأة التي رأيتها في مجلس العمدة.

قال صلاح مذعورًا: ولكن زوجها في ليبيا!

قال: هكذا يظن الجميع، حتى حملت الأمواج جثته..

- أنت تكذب..

رد سلطان بهدوء وعلى وجهه نفس الابتسامة السخيفة:

- ولماذا أفعل هذا يا بيه؟

«غير معقول».. رددها صلاح.. رآها واقفة تهدد العمدة. تستدير لتنظر إليه. تتمهل قبل أن تدخل.. لا يبدو عليها حزن أو صدمة. وسلطان يتكلم. كيف رآها تتسلل بعد أن ذهب الضابط وتشاغلت العساكر. كيف كشفت الجثة وتأملتها؟ كيف زارت المقابر وتخلصت من الملابس؟ جولاتها الليلية.. الغموض الذي أحاط بسفر زوجها، لم يصل منه خطاب واحد حتى الآن.. لا لها ولا لأي واحد في البلدة. كانت تكرهه.. تتهمه بأنه ليس رجلًا، لعلها استأجرت أحد القتلة حتى تستريح. العمدة يريد ضمها لحريمه. شيخ البلد ينافسه في الخفاء تتاجر في الفراخ والبيض والسمن. لم تنجب ولدًا لأن زوجها كان عاجزًا. حكاية ليبيا خدعة. وظل صلاح يدفع الأمر حتى

اكتشف أنه يدفعه بمحض شعوره الشخصي، ولو كان سلطان صادقًا فلعل هذا خيط الضوء الضئيل الذي ينتظره. اقترح سلطان: أحضرها للنقطة يا بيه، ودع العساكر يضربونها علقة جامدة وسوف تعترف. رأى صلاح العساكر يخلعون الأحزمة ويهوون بها على جسدها الأبيض ولا يتركونه سوى مزقًا حمراء. تناول سلطان آخر رشفة من الشاي ووضع بقية علبة السجائر في جيبه وانصرف. ارتدى صلاح ملابسه وهو يرتعد. رأى صورة أبيه داخل إطار نحاسي فوق المنضدة. طربوش عال. شارب مبروم. صدر عسكري بارز. لواء عبد الرازق صديق. كأنما يرى هذه الملامح ويقرأ هذا الاسم للمرة الأولى..

ماذا أفعل؟ تساءل وهو في الخارج. توجه للقسم. لم يجد النوبتجي في مكانه. توجه إلى الحجز فوجد العساكر جالسين في دائرة مع المشتبه فيهم يشربون الشاي الثقيل. زعق فيهم. نهضوا في ارتباك. أخذ يسبهم بألفاظ بذيئة. قلب دفتر البلاغات. سرقة حقول. سم مواشي. مشاجرات زوجية. هروب من النفقة. كل تفاهات الحياة اليومية. هدد العساكر بالتحقيق وبالخصم من مرتبهم. أخذ يزمجر ويقلب في الأوراق. رفع رأسه. اكتشف أنهم ما زالوا واقفين في طابور. خليط من العساكر والفلاحين وأكواب الشاي في أيديهم. أوشك أن يضحك. أشار لهم أن ينصرفوا وبقي السؤال يلح عليه: ماذا أفعل؟

سار للحظيرة. نظر إليه الحارس بدهشة. كان الجواد مستغرقًا في النوم وهو واقف. امتطاه ولكزه بعنف. صفع الهواء البارد وجهه وبدت البلدة مثل كلب مسعور. والنخل يتطوح ويصدر أنفاسًا عميقة. كان يعرف أن النهر يتأهب في هذه اللحظة ليتلقى الجثة السادسة. وأن القرية تسمع دبيب قلبه ووقع أقدام الجواد. لكنه سار. دخل الشارع الرئيسي ورأى النخلات الثلاث. وصف البيوت الساكنة المغلقة. وقف أمام البيت. تلبث برهة يجمع كل أشتاته.. اقترب بالجواد وركل الباب بطرف حذائه. دوّى الصوت وسط الفراغ. فكّر. لن تجد في نفسها الشجاعة حتى تفتح. عليَّ أن اقتحم الباب.. ركله مرة أخرى سمع حركة. صرخة فزع قصيرة. بعد قليل فتح الباب ببطء.. أطل وجهها في إحدى يديها (المسرجة) مصباح غازي صغير مرتعد، وتضم بالثانية أطراف الشال الأحمر حول وجهها. قالت: مَن؟ وتوهجت ذبالة المصباح فعكست ذلك التألق الغريب.. ظلت واقفة مشدوهة بين الباب والجدار.

هبط صلاح. لف اللجام حول جذع النخلة. خطا نحوها. تراجعت. انفتح الباب على مصراعيه. تخطى العتبة وأصبحا معًا في الداخل. مد يده وأغلق الباب. كان يلهث. وبدت هي أشد هدوءًا. وضعت المسرجة على الفرن وشبكت أصابعها وانتظرت. اعتدل. حاول أن يخفي صوت أنفاسه ويسترد سطوته.. قال:

- أين زوجك؟

أصدرت آهة خافتة تحمل رنة الاستغراب والسخرية. سارت ببطء إلى مصباح زجاجي معلق وأشعلته من طرف المسرجة. فرشت غطاءً صوفيًّا على أريكة خشبية، وقالت بنعومة:

- استرد أنفاسك أولًا يا بيه..

اقتربت. أصبح يراها بشكل أوضح.. لكنه كرر كالببغاء:

- أين زوجك؟

قالت بصوت رائق لا ميال:

- البلد كلها تعرف أين زوجي.. ألم يخبرك العمدة، أو شيخ البلد، أو سلطان؟

انتفض. لقد فردت مخالبها، خمشت وجهه. إنها هي التي تهاجم. أهوى على وجهها بصفعة قوية وهو يهدد:

- ألا تريدين أن تتكلمي؟

فوجئت بالصفعة. تراجعت مذعورة. صهل الجواد في الخارج. لم تبكِ. أنزلت يدها فرأى على وجهها خمس علامات حمراء.. قال:

- الجثة الثالثة كانت جثة زوجك. أليس كذلك؟

ردت بشراسة متحدية: زوجي في ليبيا..

صرخ: كاذبة.. أمواج البحر حملت جثته منذ يومين.

وقفت في مواجهته. أدرك بشعور خفي أنه لن يستطيع مواصلة ضربها. هدد: سوف أفتش البيت. لم تتكلم. أخذ المصباح، دخل حجرة كان بابها مفتوحًا على الفناء.

سرير نحاسي. أعمدته طويلة ودائر من الدانتيلا مرسوم عليه أطفال لهم أجنحة. أزاح الأغطية والمراتب. بدت الألواح الخشبية جرداء. دولاب مكسور المرآة. فتحه. تسللت رائحة عطرية رخيصة من بين كومة الملابس. ملابسها الحريرية باردة رغم نعومتها. ملابس زوجها خشنة. مغسولة ومطوية. فردها. بحث عن آثار ألم أو مقاومة. فرد ملابسها أيضًا. ألقى كل محتويات الدولاب على الأرض. أوراق قديمة وأحجبة وحلي زجاجية، ومكحلة وزجاجة العطر، ومناديل للرأس مزينة بالترتر.. بحث تحت الدولاب والسرير. لم يجد إلا حذاء قديمًا.. فكر بحنق: إنها ليست بريئة.. إنها فقط امرأة ناصحة.

عاد إلى فناء الدار. كانت واقفة تجتر غضبها بهدوء. سأل بعنف: هل هناك غرف أخرى؟ لم ترد عليه. صعد فوق السلم الطيني. وجد غرفة صغيرة تطل على السطح محوطة بالقش وعشش الدجاج. دفع الباب. هبت رائحة عفنة. زعق الدجاج. كشف المصباح عن زلع الجبنة القديمة والأواني الفخارية والمقاطف مملوءة بسقط المتاع. أخذ يجوس خلال كل شيء بسرعة محمومة يبقر زلع المش، ويحطم جرار السمن.. وأصوات التدمير والتهشيم تبعث داخله شعورًا غريبًا بالانتشاء.. وفي أحد الأركان وجد كومة مخبأة من الملابس. فردها. ملابس رجالي ممزقة في أكثر من موضع. ملوثة بطين جاف. لعل هناك آثار دم. سوف يثبت المعمل الجنائي ذلك.. أخذها وهو يزفر في انتصار: لماذا لم تصرخ حتى الآن إذا كانت بريئة حقًّا؟

اكتشف طاقة في الجدار. لها باب خشبي. انتزعه بعنف. كانت محشوة بعلب صفيح وبخرق قديمة. ألقاها على الأرض. أحس بجسم صلب تحت يديه. قبض عليه. سلاح

ناري بدائي الصنع. ماسورة واسعة ومقبض من الخشب. كان فارغًا. تنهد في ارتياح.. كانت المرأة أضعف مما توقع. خرج من الغرفة.. هبط السلم. لم تتحرك من مكانها. أخذت تتطلع إليه. ألقى إليها بكومة الملابس. هل تعرفين هذه الملابس؟ قذف بالمسدس الفارغ.. هل تعرفين هذا المسدس؟ أكمل نزول السلم. وقف في مواجهتها.. الآن سوف تقصين عليَّ القصة كلها. قالت: أي قصة؟ هذه ملابس زوجي وسلاحه. إذا كنت تريد القبض عليه فهو ليس هنا: قال: أنتِ التي سوف أقبض عليها.

قالت: ليس لك الحق في الدخول عليَّ في منتصف الليل.

أمسك ذراعيها بعنف: وأنت من أعطاك الحق في القتل؟ سقط الشال القطيفة الأحمر. انساب شعرها طويلًا فاحمًا يغطي جانبَي الوجه والعنق وجزءًا من الصدر العاري ناصع البياض. قالت: سوف أصرخ وألم عليك البلد. سأقول إنك تتهمني ظلمًا. هتف وهو يرتعد: قولي ذلك في السجن أمام النيابة. تمتمت من بين أسنانها: كنت أعرف أنك ستأتي.. لقد فهمت نظرتك عند العمدة وفي الشارع. أنا أعرف نوعك من الرجال.

قال: وأنا أكره نوعك من النساء.. وسوف أظل أضربك هنا أو في القسم حتى تعترفي. قالت بتردد: أنت مجنون.. مجنون. أهوى على وجهها بصفعة قوية. ارتمت على الأرض.. انطرح جسدها كله أمامه؛ بالغ الجمال وبالغ الوحشية. يومض داخله بالحنق والرغبة. بدائية الطين والنار، وحرقة الشموس الغريبة والسماء السوداء التي تطبق عليهما. منطرحة وساقاها منفرجتان، وشعرها متهدل وصدرها ينتفض، لو أنها شنقت فسوف يكون جسدها المعلق أكثر إثارة..

كانت تمسك سكينًا. لا يعرف من أين أتت به. دمدمت بحنق: إذا لم تغادر البيت على الفور قتلتك. كان النصل يلمع، ويكتسب بريقًا من تألق عينيها الوحشيتين. قال: لن تنجحي في القتل مرتين. اقترب منها. ترددت للحظة كانت كافية ليقبض على معصمها. قاومته. حاولت الفكاك. غرست أظفارها في وجهه وهي تلهث في ضراوة. أحس بلزوجة الدم الدافئ وهو ينفجر من جروح وجهه. أخذ يضرب يدها القابضة على السكين في الحائط، تفجر الدم من ظهر يدها. صرخت. تركت السكين يهوي. ظلت تغرس أظافرها في وجهه. قبض على ثوبها. مزقه بكلتا يديه في حركة سريعة باترة. تفجر جسدها الأبيض الناصع. أدرك لماذا لم يجد ثيابًا داخلية وهو يفتش الدولاب. كانت شفتاه تقبضان على فمها، وكانت تحتضنه بضراوة وحشية. اختلطت أصواتهما كالحيوانات في النزع الأخير. يضربها ويقبلها ويضم جسدها بين ذراعيه قويا مشدودًا صلبًا. مثل الجدران الطينية الرخوة عندما تتشرب الشمس وتقاوم المطر والسيول. ومثل النخل يقف منتصبًا. تكوما على الأرض كومة واحدة. توسل أبوه أن يترك عنقه وكان جسد مريم مثل نبات بري جارح. والرغبة متوهجة مثل الدم ومثل النار. كان يضربها ويتخلص من ثيابه، ويطلب منها أن تعترف ويطوي شعرها بين أصابعه ويريها المسدس والملابس الممزقة. ويزيح السكين من على الأرض ليوسع مكانًا حتى يتقلبا. يرى السقف عروقًا خشبية مغطاة بالسناج، ويتلوث بتراب الأرض ويتغطى برمادها. يرى جسد مريم. زهر القطن لحظة

التفتق. يرتعش إذ يتذوق طعم الدم، ويداهمه الخوف وهو يغوص فيها وبالاشمئزاز إذ لا يستطيع التوقف.. أحد الضباع يعوي بالخارج، عواءً طويلًا متصل مثل كل أغاني الموت. والحصان يصهل.. علامات أصابعه على وجهها وجروح أظافرها في صدره. تمتم كأنه في غيبوبة: يا أمي. يا حبيبتي. لماذا هربت؟ ضمته، وقالت: يا رجلي.. يا رجلي. وتحول الصوت لدمدمة وتكسر العشب وظهرت جثة سادسة.. لماذا يأتيني النهر وحدي بكل هذه الجثث؟ إلى أي مدى يستطيل الليل وتتواصل الرغبة مع الصهيل وعواء الضبع؟ عندما يأتي الصباح سيكون ثلاثتنا - أنا وأنت والجواد - جثثًا هامدة. يجرفنا موج نهر داكن. تفجر الدم من ركبتيه ومرفقيه والأرض خشنة لا ترحم. مدت يدها وتناولت الغطاء الصوفي والتفا داخله. سين: هل قتلت زوجك حقًّا؟ جيم: أعرف أن سلطان هو الذي قال لك ذلك، هو أيضًا مثلهم. سين: أنت روح البلد الشريرة؟ جيم: يكرهني الجميع أمام بعضهم، ويشتهيني كل واحد بمفرده. صدقني زوجي في ليبيا، برغم أني لا أتمنى عودته. سين: هل تكرهينه؟.. جيم: مثلما أكره كل شيء في هذه البلدة. حتى نبرات الكراهية تشتعل داخل الرغبة. فمها ملتهب وجسدها يفح نارًا. يتقد كل الحطب، ويصبح الغضب رغبة، والرغبة هوسًا، والهوس ظمأ جارحًا. زعق بهستيرية: أنا متأكد من أنكِ قتلتِ زوجكِ.. بيدكِ. أو بالاتفاق مع آخرين. لا أستغرب أن تضاجعي كل قطاع الطرق ومطاريد الجبل. أجهش أبوه في البكاء. رأى شبحًا غريبًا لامرأة تضع زهورًا فوق قبر. والأشواك تخز وجهه وصدره. قال أبوه: كنت أريد أن أصنع منك رجلًا. أجهش صلاح أيضًا في البكاء. قالت مريم جزعة: لماذا تبكي؟ نهنه مثل طفل صغير تكوم على صدرها، وتفجرت داخله كل الأحزان الدفينة. هذه مرته الأولى التي يضاجع امرأة. ومرته الأولى التي يبكي فيها على صدر امرأة.

همس وهو يهذي: لماذا تركتني؟ لماذا هجرتني وأنا صغير؟ لم تعطني سوى المرارة والإهانات المتصلة.. أعطتني في الأحلام زهورًا من الشوك. ودفعت في اليقظة ثمن متعتها في كل مكان غريب مع أي رجل غريب. لم تتذكرني يومًا واحدًا. لم تبعث لي تحية واحدة أو رسالة واحدة. كذلك لم ينسَ هو.. لم ينسَ أبدًا..

ضمته مريم إلى صدرها أكثر.. أخفى رأسه وهو يبكي ويتمتم بكلمات غريبة يتحسس شعرها ويبحث في بطنها عن مكان له. تقابل وجهاهما أخيرًا. أدرك لماذا فكر أنها ليست منهم. لماذا سار خلفها بالجواد حتى يرى وجهها وتذكّر الصورة المخبأة في درج أبيه. مرة واحدة رآها، ولم ينسها: نفس الوجه. العينان.. الأنف.. الشفتان.. انسدال الشعر.. انحناءة الرقبة.. انسياب الكفين.. قالت: اهدأ يا حبيبي.. أنا مريم.. مريم الصافي. كان موقنًا من أنها تكذب. إنها تحاول قتله مرة أخرى. تناول السكين الملقى على الأرض. قبل أن تدرك ويدرك ماذا سيفعل، غيب النصل اللامع في صدرها. صرخت في فزع ودهشة. ارتدت بجسدها العاري. انفجرت نافورة من الدم القاني الدافئ. حاولت أن تبتعد. أن تنهض. غيب النصل في ظهرها. سقطت عاجزة.. تحشرجت صرختها وظلت عيناها تحدقان فيه. كان بطنها ناصعًا. أخذ يطعن وكل طعنة نافورة من الدم الأحمر. وكل طعنة شهقة رعب وانتشاء..

والصرخات تتحشرج وتتضاءل وتذوب.. كف الجواد عن الصهيل، والضبع عن العواء، وهمد الجسد الأبيض..

كان هادئًا وديعًا مثل طفل حديث الولادة. يتنفس بهدوء ويتحرك بنعومة. جمع ملابسه من كل الأركان. ارتداها بتمهل. نفض التراب العالق. أعاد تلميع النجوم والأزرار النحاسية. لف الجسد في الغطاء الصوفي وحمله. رأى عينيها الجاحظتين للمرة الأخيرة. فتح الباب.. كان الجواد يأكل العشب الموجود بين جذوع النخل. والبلدة نائمة. والقمر متنائي البعد. وضع الجثة فوق ظهر الجواد. تدلى رأسها ويداها في جانب. انسدل شعرها حتى لمس الأرض. تدلت ساقاها في الجانب الآخر. امتطى الجواد. سار ببطء شديد. دق الأرض في تتابع هادئ.. حتى إنه سمع حفيف شعرها بالأرض وهو يتصاعد كالهمس الغامض. بدا النهر والجبل الغربي تحت ضوء القمر مثل كومة من الجثث البيضاء.. وقف الجواد على الحافة وسط العشب البري وتحت أغصان الصفصاف. دفع صلاح الجثة. هوت وسط الماء. أحدثت صوتًا مكتومًا. اهتزت خطوط الضوء بشدة وتكسرت.. تتابعت الدوائر.. أخذت تتسع حتى تلاشت. انتظمت الموجات وانطبع القمر كاملًا واضحًا.. ومضى النهر.

١٩٧٦

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المماليك يعودون خلسة

في منتصف الإسفلت وقفا.. أشارت سامية للمدينة. قالت: كل شيء يرعبني، يبعث داخلي شعورًا مثل البكاء ومثل الجوع. كل مرة أراها كأنها المرة الأولى وكأنه إحساسي بالرعب الأول. معًا كنا في منتصف الإسفلت. غاية في الغربة والتباعد. قلت: يا سامية أنتِ حزينة أكثر مما ينبغي. وسرنا قليلًا.. قالت: نلتقي في المساء. قلت: نلتقي في المساء. وافترقنا..

أرى المدينة أمام عيني. عمارات وحواري رطبة. أشمها. رائحة اللحوم الفاسدة والكشري وحمص الشام. أسمعها. صرير عجلات الترام. احتضار طيور مذبوحة. لكنني أغمض عيني فلا أرى إلا صحراء ممتدة قاحلة. إنني أكره النوم ولحظة الإظلام. وأخشى ركوب الأتوبيسات المزدحمة حتى لا يسمع الجميع ما يضج بداخلي، وأشهد أن المطر يكون في أول الشتاء رائقًا، وفي آخر الشتاء مائلًا للاخضرار، وبه بعض العفونة يقطر في الكوب الذي أمامي. كأن هذا الشاي الأخضر هو بقايا الشتاء الذي لا ينتهي..

المقهى خالٍ.. لكنني لم أسمع صوت المعلم «نايف» وهو يناديني. يلكزني بمبسم الشيشة حتى انتبهت إليه. قال وهو ينفث دفقة كبيرة من الدخان:

- أريديك في أمر هام..

تناول آخر رشفة من الشاي، وبصق التفل:

- ذهبت إلى غرفتك. ذهبت إلى منزل خطيبتك. لم أجد أحدًا.. الأمر هام فعلًا..

- ....

- معي فص أفيون. سوف نؤجله لما بعد عودتنا. مشوار بسيط داخل (درب الإنسية)..

مقهى ضيق. حارة ضيقة. أناس لا يكفون عن الحركة والتكاثر وسط هذا الحيز بالغ الضيق، يتنفسون فتتلوث الجدران. نقوش غائرة. أيدٍ مبتورة. أدعية قديمة. ثم يأتي المساء.. أعرف ذلك عندما يخرج «الحاج زينهم» من دكانه حاملًا قدر «حمص الشام» الضخم ويلقي بمحتوياته لأبعد ما يستطيع، فتتناثر الحبوب الصفراء - كهرمان عطن - بين شقوق أحجار الطريق.. أعرف ذلك أيضًا عندما تقسم مئذنة القلعة، الشمس إلى نصفين. وتتسلل الأشعة خلال شعر سامية دون أن تعطيه لونًا محددًا. وتعود العصافير متعبة فلا تجد عشًّا إلا في الزنازين الرطبة.

حمل الجرسون الشيشة والصينية. دفع المعلم نايف الحساب وسرنا. أرض رمادية، سحب سوداء. درب جانبي. غبار أطفال يلهثون. عاود نايف الإلحاح:

- لن تندم لأنك أتيت معي، هذا سري الذي لم أقله لأحد.

رأيت أن هذا البيت على وشك الانهيار. وهذه الوكالة. وهذا المسجد القديم رأيت أن المشربيات المتداعية يسكنها أناس وفئران، كامل العدد. يتقاتلون على الفتات،

تتصاعد رائحة الدم الطازج مختلطة مع رائحة الطبيخ والغسيل بالصابون الرخيص. رأيت هذا فقلت: أود الصعود للجبل.

سُر نايف لأنني تكلمت أخيرًا.. قال:

- مازال الوقت مبكرًا للصعود.. انظر.

أشار للأمام.. شخص يجلس على عتبة أحد البيوت المتهالكة.. يرتدي ملابس غريبة، لم يكن من هذا المكان، ولا من هذه البلد، جمع من الأطفال المتسخين يلتفون حوله. لم يبد عليه أنه أحس باقترابنا بوقوفنا أمامه. ملامح عجوز. لحية مدببة. ابتسامة بين السخرية والذهول. يتأمل الأطفال ويشم الغبار ويرصد كل شيء. قال نايف مذهولًا:

- ما الذي جاء به إلى هذا الدرب المنعزل؟

فكرت: إنهم كثيرون حتى إنهم يوجدون في كل مكان..

- هل نتحدث معه؟

- كلا، هو يعرف طريقه جيدًا بلا شك.

انتهى الدرب الجانبي وظهرت حافة الجبل.. دخلنا تحت تعريشة من الأخشاب القديمة. أحاطتنا جدران متهدمة ملطخة بالسناج، منشور عليها جلود حديثة السلخ لم يزل الدم المختلط بالملح يسيل فوقها في خطوط متعرجة. بعيدًا في حضن الجبل تلتف ظلال أناس حول نيران متفرقة. تحمل سامية المصباح الغازي وتهبط أمامي تحذرني من الدرج المسكور. في فناء الدار تزداد حدة رائحة دورة المياه الموجودة تحت السلم، حتى إن رغبتي في لمسها تموت. نتبادل تحية فاترة ونفترق.. قال نايف:

- لقد احتطت للأمر. هناك فانوس في مكان ما.

حركته الدءوب وحفيف ثيابه يبعثان الاضطراب في الظلمة التي تحيط بنا. وتساءلت:

- هل هذا هو المكان؟

- أجل.. ولكن علينا أن نجد الفانوس أولًا.

تلمست حائطًا واستندت عليه.. نايف يشعل أعواد الثقاب والبرودة المتكاثفة تطفئها، مع كل توهج ألمح جرمه الضخم وهو يفتش بين الأحجار. يهتف:

- وجدت الفانوس.

اشتعل عود آخر. رأيت الفانوس. ونايف يدخل يده ويشعل الذبالة. دبت في المكان حركة الظلال، لكن الظلمة بقيت رابضة أمامنا والرائحة الثقيلة تتكاثف.. قلت في ضيق:

- ماذا ترى؟ لماذا جئت بي إلى هذا المكان؟

رفع الفانوس.. قال في هدوء: سوف ترى كل شيء.

الهواء يرسل صوتًا خافتًا.. تأوهات متواصلة. الفانوس يصنع دائرة في الضوء تكشف عن خراب. تغوص أقدامنا في تراب ناعم.. ونتخطى عروقًا خشبية نخرة.. سقوفا مائلة.. أواني فخارية. بقايا أثاث. تشدني كتلة الظلام برغم تربص الخطر.. من هذا المكان تمتد جذور الحطام. بوابات متداعية. فتحات تؤدي إلى مأوى غامض تحت الأرض.. نايف يدمدم. والضوء يرتعد: هذا سري.

أسأله: أين نحن؟

فلا يجيب.. نواصل السير يختفي الحطام فجأة وتصبح الأرض مستوية ممتدة رائقة.. قلت مندهشًا:

- هذه أرض مزروعة..

- كلا..

خيل لي أنني أرى نباتات غليظة تشق الأرض.. أشرت في حيرة خائفة:

- ولكن هذه...

قاطعني بصوت باتر:

- هذه عظام آدمية.

- ماذا؟

- تحسسها بنفسك.

انحنيت.. مددت أصابعي.. لمسة خفيفة. برودة. كانت صلبة ناعمة. تضوي تحت تأثير الفانون وتترك على أطراف أصابعي طبقة من الغبار الناعم. قلت مذهولًا:

- إنها عظام فعلًا.

لوح بالفانوس.. تحركت دائرة الضوء. اكتسى صوته بنبرة غريبة:

- يبدو أن القيامة ستقوم في هذا المكان..

كنت ألهث خلف دائرة الضوء.. خلف رائحة الموت المؤكد. والعظام تتشابك وتخترق الأرض. ضلوع نحيلة متماسكة، واحد فوق الآخر.. فقرات الرقبة المتراصة أيضًا دون رأس.. سيقان ممددة.. مرتبة الأعضاء في الأماكن الصحيحة. ذراع بارزة بكل طولها. الأصابع المدببة تشير إلى شيء بعيد. جماجم مرفوعة في مواجهتنا تتابعنا من خلال حدقاتها الفارغة.. هياكل كاملة، مسجاة أو مستندة إلى الصبار. كأن كل شيء في انتظار حدوث شيء ما. كلمة أو إشارة غامضة حتى تدب فيها الحياة.. كنت مذهولًا:

- أي أناس هؤلاء؟ أي مقبرة تلك؟

نايف يسير، لا أقوى على مواجهة ما تكشف عنه دائرة الضوء. لا أقوى على إغماض عيني.

قال: انظر ما سيأتي.. سيوضح الأمر قليلًا.

رفع ذراعه فاتسعت دائرة الضوء.. ازدحم المكان بأشياء أكثر غرابة. سيوف صدئة. مقابضها متوهجة.. رماح طويلة مشروعة الأسِنة، دروع حديدية متكومة في تلال متفرقة، ثياب. عباءات حريرية موشاة بالقصب وخيوط الذهب. أردية. سترات. عمامات ضخمة. زرد متداخل الحلقات. قمصان نحاسية يعلوها الاخضرار. خوذات ذات زوائد حديدية لحماية الأنف والعينين. أحذية طويلة الرقبة. صنادل مطعمة بالمسامير.. خطافات وكرابيج، وسهام صغيرة، وخناجر مدببة الأطراف، وسروج ساكنة متربة، يفوح منها عفن ثقيل. تنبض أيضًا بلحظات الترقب. كنت أدور حول نفسي.. ونايف جالس فوق أحد الأحجار. يرقبني. سألني: هل فهمت؟

- مَن هؤلاء الناس؟

- ألم تفهم؟ ألم تشاهد هذه العظام البيضاء.. الملابس.. الدروع.. السيوف؟ كل ذلك لم يكن موجودًا من قبل. لقد برزوا من جوف الأرض شيئًا فشيئًا حتى ازدحم المكان بهم. من الأفق إلى الأفق، انظر هذه الناحية سوف تشاهد هياكل من نوع مختلف.. إنها الخيول.. خيولهم.. مجمعة ومرتبة وتنتظر.. كل ذلك برز من جوف الأرض.. من كل القبور القديمة. العظام أولًا ثم الملابس، ثم السيوف.. كلاها في الانتظار.

- مَن هؤلاء الناس؟

- إنهم المماليك.. إنهم يستعدون للعودة.

انتصب واقفًا.. بدا جرمه الضخم والجبل الذي خلفه متساوي الطول.. أشار إلى كل الاتجاهات:

- لا يكفون عن الزحف. كانت العظام تبرز على حواف الجدران المهدمة.. والآن تملأ كل الخلاء، وسوف تزحف بين الناس وتملأ البيوت..

اكتسب صوته عمقًا غريبًا تجاوب مع الصدى الخافت كأنه نبوءة مؤكدة..

- هذا جنون.. إنك تهذي.

- كل هذياني أمامك.. تلمسه بيدك واهذِ معي..

انطفأ المصباح.. أخذنا نتعثر عائدين.. كنت ألهث ونيف يتبعني.. أسمع غمغمتهم تتعالى.. تنادي بألقاب التفخيم والكلمات التركمانية تستعيد حيويتها.. حمحمات الخيل، وصليل السيوف، والبيادة يجلون أطراف الأسنة، ويربطون السروج، ويصفون السهام. قال نايف:

- لقد تركنا الفانوس خلفنا ولن نستطيع العودة.

واصلنا التخبط بين الأنقاض. سمعت صوت ارتطام جسد نايف بالأرض. ساعدته على النهوض. لم أتبين ملامحه لكنه كان يتألم، ظللنا متماسكين صامتين وأنفاسنا تتردد بصعوبة.. اجتزنا الدروب الضيقة والخرابات. برز الجبل وكنت أعرف طريقي وسط دروبه. مررنا ببقعة من الضوء فرأيت الدم يغطي جبهة نايف. هبت أنفاس الجبل. رائحة الصخور المفتتة والصهد. صعدنا. ساعدته على الجلوس فوق أحد الصخور..

- هذا خيال..

قال وهو يتحسس جبهته: لماذا ترتعد إذن؟

- كيف عرفت الأمر؟

- شهور طويلة وأنا أرقب بروز العظام. ظل الأمر غامضًا. كل يوم أجلس الساعات الطويلة أراقبها وهي تشق الأرض وأسمع التقلصات الخشنة.

أدخل يده في جيبه. حرك أصابعه.. سمعت خشخشة السلوفان. مد يده. ناولني قطعة وأخذ لنفسه القطعة الثانية. قلت: إنها كبيرة.

- لن تساعدنا حتى ولو كانت الضعف.

وضعتها في فمي. أحسست مذاقها المر اللاذع وهي تلتصق أسفل لساني.. توقفت عن الكلام. وكل منا يحرك فكيه ببطء. فكرت. قد تمدنا ببعض الشجاعة. بدأت عملية الذوبان وانتشرت المرارة الرائعة. أصبحت أضواء الجبل أكثر قربًا وتألقًا. هبت ريح رخية فتناثر شعر سامية مثل كلمات النمائم. وماتت الشمس - التي أعشقها وأخافها - في مغارات المقطم، والحمامات في الحواري تشعل وقودها فيتصاعد البخار المرتعش، يلف أجساد الرجال في الليل، وأجساد النساء في النهار، ويمضي بينهما محملًا بالخصوبة. صانعو الحصير يجدلون العصي الملونة، ويرسمون خلال النسيج صورًا لطيور ممزقة الأجنحة.. رواد المقاهي الفقيرة يتباحثون في تدبير مصارعة تفوز فيها كل الديوك الهندية المتألقة. حتى العظام تبرز ناصعة الألوان، وهدير المماليك ينساب مختلطًا مع غناء القيان ودق دفوف الجواري وضحكات سامية.. وما أقل ما تضحك سامية، وما أشد تألق عينيها.. تمد يدها وتمسح جبيني. غداة يوم متعب. مساء حلم غريب، هل حان أوان الانصراف؟ درب ضيق.. غبار.. صراخ «بنت آوى» وهي تمرق، يجاوبها نباح الكلاب المرتعشة. لم يعد الرجل الغريب جالسًا. المقهى أغلق أبوابه.. أضع يدي على صدر سامية.. أحاول تقبيلها فتفلت مني وترشقني بوردة حمراء. أرفع قدمي من الوحل. يغمغم نايف وينصرف. يهتف رجل من أقصى الحارة: «وحدوووه» فأرد عليه بخوف: «لا إله إلا الله»، يشهر الرجل سيفه ويرشقه في الجدار، ثم يخلع عمامته ويعلقها على المقبض.

فناء الدار. الدرج المنكسر. غرفتي. الفراش المتشعث والكتب المتناثرة. الصور الملصقة فوق كل جدار. العالم الصامت الكئيب المُعادي في أغلب الأحيان. صورة

سامية تحاول الابتسام. لو أنني نظرت تحت السرير لرأيت العظام الملونة. النافذة مفتوحة تكشف عن المئذنة المسكورة التي تسكنها طيور سوداء.

سوف أنام حتى تشرق شمس جديدة لم تشرق من قبل. أحلم بمدن تُبنى من جديد بشوارع جديدة تبدأ من الصحراء. وتنتهي في البحر. صنعت كوبًا من الشاي، أخرجت أوراقًا قديمة. قصائد لم تتم ورسائل لم ترسل. وتذكارات فقدت تواريخها. عالمي عاري الضلوع.. لكن الطيور النائمة فوق المئذنة المكسورة تصرخ.. والأطفال يختفون في البدرومات، والربوع القديمة.. أي بعث هذا؟!

تعالى صوت رفيع يناديني. نظرت من النافذة.. محمد شقيق سامية الصغير يقف وسط الشارع ويشير بذراعه في خوف:

- أبي وأمي يريدانك... انزل سريعًا..

سيقودني هو أيضًا إلى مقبرة أخرى.. هبطت. كان مفزوعًا.. ثمة شيء حدث لسامية.

ليلة مشبعة بالموت، تحمل في كل لحظة اكتشافا مروعًا.. الأب والأم يكرهانني، ولكن هل تحبني سامية حقًّا؟ يحمل لي قدرًا من التآلف. الحارات التي عشت فيها أيامي القلقة. البيوت الخربة. النجوم المختلطة بنفايات المجاري.. لم نكن نسير في الطريق المؤدي للبيت.. ظللت أدندن. قال لي في توتر: ألا تسألني إلى أين نحن ذاهبان؟

- إلى مقبرة أخرى، هذه ليلة العظم العارية زاهية الألوان.

باخت الأغنية.. عبرنا بوابة القاضي.. قبة قلاوون الضخمة تحتل السماء. العظام تصعد مع النباتات المتسلقة فوق واجهة البواكي.. اتجهنا إلى قسم البوليس.. رمقنا العسكري بريبة. صعدنا الدرج الحجري. عبرنا ممرًّا ضيقًا. دخلنا غرفة جانبية. زادت شدة الضوء. كان الضابط جالسًا، والأم تبكي فوق أريكة جنب «التخشيبة» والأب مستند على الحاجز. نظروا كلهم إليَّ. اتهموني للحظة خاطفة. دق عسكري الأرض بحذائه.. زعق الأب والأم بصوت واحد: أنت.. رمقني الضابط بازدراء مبالغ فيه.. سأل: أنت خطيبها؟

- ماذا حدث؟

- منذ أكثر من سنة.. ماذا حدث؟

زعقت الأم فجأة: لقد اختطفوها..

خلف الضابط مباشرة لمحت أحد المماليك جالسًا فوق سلة المهملات. ثيابه المطرزة بالقصب وخيوط الذهب تتألق. عمامته ضخمة وشاربه الطويل يكاد يقسم وجهه.. كان جالسًا في هدوء واضعًا سيفه على ركبتيه، ويبرم شاربه في سرور. بحلقت فيه مندهشًا. التقت أعيننا. غمز لي بإحدى عينيه. قلت إنني لا أفهم. قال الضابط بلهجة رسمية: المدعوة سامية عبد التواب البالغة من العمر اثنين وعشرين عامًا تغيبت عن بيتها منذ الأمس. هل لديك معلومات عن مكان وجودها؟

- لا أعرف.

- لقد بحث أبوها وأمها في بيوت الأقارب والأصحاب، المستشفيات والأقسام. ولم يعثر لها على أثر.. هل لديك معلومات؟

- لماذا لم يقل لي أحد؟ لماذا لم يخبرني أحد من لحظتها؟

- هناك مَن يقول إنها اختطفت.. اختطفها أشخاص مجهولون في سيارة مجهولة.. هل لديك أي معلومات؟

- مَن الذي يقول؟

- شهادات غير مؤكدة. أبوها وأمها يقولان أنه لم تكن في البيت أي خلافات. هل لديك معلومات عن سبب اختفائها؟

- لم يكن بيننا أي خلافات.

نظر الضابط إلى الأب والأم حتى يرى صدى إجابتي. زعقت الأم في هستريا: أريد ابنتي.

حاول محمد أن يهدئها، جلست في الجانب الآخر.. نهض المملوم.. سار وهو يتمايل. استند فوق الحاجز الخشبي، نفخ في وجهي. أنفاسه ثقيلة الرائحة. حرك فكيه قليلًا ثم بصق فوق المكتب. بصقة سوداء من أثر التبغ الممضوع. قلت: ماذا سنفعل؟

قال الأب بمرارة غريبة:

- أنت السبب.. لقد ضاعت منا ومنك. أنت لم تستطع المحافظة على شيء.

قلت للضابط: هل أستطيع الانصراف؟

- هل ستبحث عنها في أماكن محددة؟

- لا أعرف أين أذهب أو من أين أبدأ!

ولولت الأم: فقدتها وأنت السبب.

قفز المملوك من فوق الحاجز الخشبي بحركة رشيقة رغم امتلاء جسده. أخرج سيفه وأخذ يحركه في الهواء.. حركات سريعة ليجرب مرونة يده. ثم وضعه في الغمد مرة أخرى.. أشار بيده في رقة متعالية: حضرتنا أمير الجيوش البرانية.. تعال معي إلى مغارات القطم.. الليلة يتألق نجم سعدك.

قال محمد: نريد أن نذهب معًا.. حتى نبحث عنها.

ضحك المملوك في انشراح: عفارم عليك.. هذا ولد جميل.. هيا نأخذه معنا للمغارة.

صرخت: كلا.. لا أريد أحدًا.

هبطت الدرج الحجري. وقفت وسط ميدان القاضي. أحسست بالعطش الشديد. قال المملوك: ليس لك في الطيب نصيب. وعاد إلى داخل القسم. كانت قبة قلاوون مثل خفاش مفرود الجناحين. والسماء مكنوسة.. صرخت: أين أنتِ يا سامية؟

البيوت جنب البيوت.. وأحجار الطريق جنب أحجار الطريق. وأنتِ بعيدة. الربوع القديمة تهوي وأضلاعنا تتعرى والطيور تحتضر في أثناء نومها.. فأين يمكن الذهاب؟

جريت في الطريق إلى بيتها. سأجدها في انتظاري. واقفة على أول السلم تمسك المصباح الغازي لتحذرني من الدرج المكسور.. دفعت باب البيت. صعدت في الظلام. تعثرت في الدرج. شممت رائحة دورة المياه، وجدت الشقة مفتوحة. خالية. المصابيح السهاري ترتعد. غرفتها الضيقة. مشربية خشبية. دولاب في الحائط، الفساتين التي أحفظ ألوانها. وأحفظ أماكن الرتوق الخفية في كل منها. السرير الضيق. تزداد درجة ضيقة، كلما شاركها فيه أخوها محمد.. أدوات الزينة الرخيصة. المرآة نصف المعتمة. بقايا كتب الدراسة. بقايا هدايا كنت قد أحضرتها.. أحس بأن ثمة مَن يتنفس. بتردد الأنفاس الباردة. لكن لا أحد. فتحت الدولاب. نظرت تحت السرير. رأيت العظام بارزة. تركت الغرفة، هبطت السلم. تعثرت. شممت الرائحة.. المرة الأخيرة التي رأيت فيها سامية، كنا على النيل.. كنت غريبًا تحت الشمس وأمام النهر الغائض. الجرسون يشبه أمير الجيوش البرانية. يبتسم. يحضر مشروبات باهظة الثمن ناقصة السكر.. ساعة كاملة بقيت فيها وحدي. أرقب طير الماء وهو يحلق في بطء غريب دون أن يحرك جناحيه. جاءت سامية متأخرة، لم تعتذر. جلست، هتفت في ضيق: ما فائدة المدارس والتعليم؟ أدركت أننا سوف ندخل معًا في إحدى دوائر العذاب. رفعت يدها بالورقة التي كنت أحفظ شكلها جيدًا.. دبلوم التجارة المعظم. منذ الصباح، منذ كل الأصبحة وهي تدور. دكاكين.. فنادق وخانات. ووكالات. عطارين. بقالين. باعة الأقمشة والأحذية. ومهربي العملة. خلعت حذاءيها فجأة. انتشرت رائحة قدميها. عرق وعفونة ثقيلة. اختلطت بكل ذرات الهاء الذي يهب من ناحية البحر. شمها الجرسون. وعمال البوفيه. بائعو الفل الذابل. والمراكبية. سائقو التاكسيات وعشاق المدارس. كنت أرى ذرات الرائحة الداكنة وهي تتلوى في خطوط صغيرة. كانت تتكلم. الحارة رطبة والبيت ضيق. ووعودك بالغة المشقة. قلت: البسي حذاءك، وهيا ننصرف.. هذا مكان نظيف لدرجة الاختناق. صرخت فيَّ: اصعد للجبل. كل الأفيون. تحدث مع الشيخ عاشق الصخر؛ لعله يفيدك بحكمة ما. كانت أحلامها قاسية. والشيخ يشكو لي من أحاسيس غريبة دنسة. وكلما التف حوله المريدون تزايد هذا الإحساس وإنه في صميم الحضرة.. عندما يرتفع إيقاع الذِّكر وتذوب الأجساد وجدًا، يلهث في جوع، ويتمنى أن يضاجع كل مريديه وسط ارتفاع الأدعية الحارة.

ماذا أفعل يا سامية وأين أجدك؟

جامع قلاوون أمامي مرة أخرى.. دفعت الباب الخارجي. زعقت في الطرق الممتدة. يا سامية. طارت الخفافيش وتمزق نسيج العناكب. فتحت باب البهو. كان المنبر متحطمًا. مائلًا إلى أحد الجوانب. والثرايا متدلية خالية من المصابيح.

الأثاثات المنزلية تزحم كل الزوايا وتسد الطريق إلى القبلة. ما بين الأعمدة الرخامية تمتد الحبال تحمل الملابس المغسولة. ترتفع الملاءات حتى تصنع حواجز بين ركن وآخر.. هل تكون سامية هنا؟.. أخذت أزيح الملاءات وأخوض وسط الأجساد النائمة.. سرير منصوب ذو قوائم مرتفعة. رجل وامرأة هامدان على الأرض. حصرٍ ممزقة. وأطفال نحاف متداخلو الأعضاء، كل في الآخر، لعل هناك قدرًا ضئيلًا من الدفء. لكن الأحجار القديمة لا ترحم. تهمي من خلال النقوش والآيات المحفورة برودة قاتلة. أود أن أصرخ في الجميع حتى ينهضوا. هدمت بيوتهم عبثًا. استكانوا في صحون المساجد عبثًا. أزيح الحاجز التاسع والعاشر والحادي عشر. أطفال ينامون وعيونهم نصف مفتوحة.. صبايا لا يستُرهن شيء. رضيع يتبول على نفسه، وأمير الجيوش البرانية يعانق امرأة. والمرأة تبحلق مذعورة. أهذه عين سامية؟ أمير الجيوش البرانية يرفع رأسه وينظر إليَّ. يقهقه في سعادة، ترن الضحكة وتخترق كل الأروقة. غمغم الأطفال وهم نيام. ظلت يدا المرأة فوق كتفه البيضاء.. جريت. عبرت البهو والممر. كان الرجل الذي قابلته في أول الليل جالسًا على الباب الخارجي.. قلت وأنا ألهث: هل رأيت سامية؟

أشار على طول المدى. جريت حتى باب الفتوح. رجعت إلى باب القاضي. سألت الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم. في «حوش قدم» جدلوا من أسئلتي حصيرًا ملونًا ورسموا طيورًا تعاني الوحشة. صانعو الحلوى أخرجوا صواني الحلوى والبسبوسة محترقة الحواف. أوقفت الترامات المتهالكة. دخلت الربوع المجهولة. والزوايا التي تسكنها العفاريت، لا الشحاذون أجابوني ولا شيوخ الحارات ترفقوا بي. فأين أنت يا سامية؟ في أي مستشفى؟ في أي شقة مفروشة؟ في أي سيارة؟ في أي صحراء؟ في أي نهر؟ في أي كباريه؟ بين أي أيدٍ؟ في أي الأزمان تعودين؟ بأي قلب أراك؟ نائمة، مستيقظة؟ مستمتعة بالحب؟ طائعة، مجبرة؟ مغتصبة؟ شاعرة بالإهانة؟ كنتِ تقولين لي: انظر.. إن لهم القدرة على الحلم. تقولين: أحلامنا مثل ثوب ممزق. أقول: لم أطلب منكِ أن تحلمي بي. تقولين: اكتب قصائدك العنيفة، احلم بالدمار الشامل. القصائد. حبر وورق. العمارات من الخرسانة والسيارات من الصلب. قلت: هل تحبينني؟ قالت: أحبك، لكني لا أستطيع أن أغمض عيني. شمت رائحة قدميها خارجة من كل الشقوق القديمة. سمعت صوتًا. دخلت الربع الذي كان أمامي. وجدت نايف معلقًا فوق حائط، ويده مغلولة والدم ينزف من كل جسده. رآني. قال بصوت متحشرج: لقد عاقبوني لأني أفشيت السر. قلت: عاقبوني أنا أيضًا واختطفوا سامية. قلت: سوف أعود للبيت. سأنام وسأغلق الباب من الداخل. سوف أكف عن كتابة الأشعار. ليس هذا زمننا. انصرفت منكس الرأس. مقهورًا طول الطريق أسمع الصهيل. وأرى الغربان تحوم. تنتظر أوان سقوط الموتى. هل يمكن أن أغلق حجرتي وأكف عن سماع ما يدور في الخارج؟

يا سامية.. أنتِ ترين أنني حتى لا أستطيع أن أحلم بكِ. المماليك يطاردونني، ويوقعون العقاب بأصدقائي.

زعق الفجر من فوق كل المآذن العتيقة. لم يجرؤ أحد على الصلاة. كانت المساجد مزدحمة بالنائمين. بدت تباشير الضوء الرمادي.. هل يجرؤ أمير الجيوش البرانية

على مواجهتي تحت ضوء الشمس؟ دخلت البيت. وقفت ألهث فوق الباب. تطلعت للأمام. كانت سامية جالسة على السلم. رفعت وجهها ببطء. حدقت فيَّ بنظرة ثابتة، كأنها لا تراني، لكن وميض عينيها خلق بيننا ما يشبه التعارف. الشعر الطويل منسدل فوق كتفيها، لم يكن ممزقًا أو مشعثًا. بل كان يلمع بوهن تحت الضوء الرمادي. ووجهها الصغير محدد التقاطيع لم يكن باكيًا ولا مغتصبًا. كان هادئًا، مستسلمًا. كأنما انتهت في التو لمسات خلقه. حول عينيها كانت دائرتان من السواد تكسر حدة هذا الصفاء. اقتربت.. جلست على درجة أسفل الدرجة التي تجلس عليها.. يدها موضوعة فوق ركبتها ويفصل بينهما الفستان الداكن. كانت دبلتي الذهبية في إصبع يدها اليمنى. لمست ثوبها. قلت: ثوبك مزق.

خيل إليَّ أنني لم أسمع صوتها. لكنها قالت في هدوء: يبدو ذلك.

كنت أحس بجفاف حلقها.. قلت: هل آذاكِ أحد؟

ردت بصلابة: أجل.

- كم كانوا؟

- أربعة.

- مَن كانوا؟

- أي شيء.. لا يهم.

قلت ببلاهة: هل قاومتِ؟ تنهدت. خيل إليَّ أنها ستبكي. لكنها لم تبكِ. كنت أخشى أن أطيل الأسئلة حتى لا تصمت، وكنت أريد أن أعرف كل شيء. لماذا لا تبكي؟ لماذا تبدو بمثل هذا السكون؟ هل نصعد؟ صعدنا.. جلسنا.. فوق مقعدين متباعدين.. هل أنتِ جائعة؟ كلا.. كيف حدث ذلك؟.. قالت: أنا مخنوقة.

أحسست أنها ستبكي.. أمسكت يدها فسحبتها من يدي. قالت إنهم كانوا أربعة في عربة خاصة. وإنها قاومت كثيرًا، لكن الشارع كان خاليًا، وذكرت لي اسم أحد الشوارع الغريبة. سألتها ما الذي ذهب بك إلى هذا الشارع، قالت إنها كانت تبحث عن عمل.. حاولت احتضانها.. كان يشيع من جسدها رائحة جديدة، حتى إنني افتقدت رائحة قدميها. كنا كطفلين بالغي التعاسة. قالت: هل نهبط؟

قلت: هل تودين العودة إلى البيت؟

قالت: لا أدري.

وأخذت تحدق خلال النافذة. اختفى اللون الرمادي. أصبحت السماء مشبعة بحمرة الشروق. قالت: إنني أكره الشمس. فكرت: سوف تأتي الشمس. ويرى الجميع جثة نايف، ويردد الأطفال حكاية سامية. وتتكشف عورات الطرقات الضيقة. عادت تردد: إنني أكره الجميع. قلت ببلاهة وحقيقة: حتى أنا؟ قالت بتصميم بارد: أنت أولهم.. أنت أشدهم.. أنت تتظاهر بالشفقة اللعينة، ولا تعطني شيئًا سوى الوعود والكلمات.

قلت عاجزًا: لكنكِ كنت تعرفين.. تعرفين منذ البداية.. لم أكذب.

- كل شيء يكذب.. كلماتك.. أحلامك. والنوم في العراء.. أكره البيوت القديمة. وأكره صوت الفئران، وهي تخرج في منتصف الليل، وأكره لدغة البراغيث. ورائحة دورة المياه الكريهة.. وحديث أمي عن الصبر.. إنني أكره مثلك كل هذه الأشياء.

- لكن الكراهية المجردة، شر.

- ليست كراهيتي مجردة. إنني أكرهك على وجه التحديد، أكره الكتب المرصوصة في كل ركن، وأكره الصور المعلقة فوق الجدران.

ضمت قبضتها ووقفت في منتصف الغرفة كأنما تحاول أن تنزل فوقي لعنات مجهولة. لكنها انفجرت في البكاء.. هوت على ركبيتها، وأخذت تنشج في صوت مرتفع.. اقتربت منها بتردد، ووضعت يدي على ظهرها. تناولتها وأخذت تغمرها بالقبل. احتضنتها وأخذنا نبكي معًا.. قالت: سامحني.. أنا طفلتك الصغيرة.

قلت: يا صغيرتي يا حبيبتي.. إنني أعرف السبب.. إنهم المماليك.. لقد عادوا خلسة.. إنهم يسحبون الأرض من تحتنا.. يهدمون دورنا، ويجعلوننا نهوي، نسكن المقابر والمساجد الخربة. يختطفون نساءنا، ويرغموننا على الغفران القهري.. يأخذون أخواتنا ويتركوننا نتصارع حول الفتات.. يا صغيرتي، لقد عادوا.

قالت: أنت مجنون..

تخلصت من ذراعي: لم أعد أستطيع العودة إلى بيتنا.

قلت: سأتزوجكِ وسنعيش في هذا المكان.

قالت: ليس في استطاعتي الزواج.. لم أعد أرضى بمثل هذا المكان.

قلت: أعجبتكِ الشقة المفروشة إذن؟

- لن أتنفس هذا الهواء مرة أخرى.

قلت: وأنا أريد أن أحسم الموقف.. هل تحبينني أم لا؟

صرختْ: ماذا يعني هذا سوى المزيد من الاستسلام؟

- لم نستسلم.. سوف نحاول.

- نحاول.. نحاول! لا فائدة من المحاولة.. لا أستطيع مواصلة الحياة هنا بعد هذه اللحظة.

- اذهبي إذن ودعيهم يختطفونكِ مرة أخرى.

- مَن قال إنهم اختطفوني؟

قلت مذهولًا: ماذا حدث إذن؟ رأيت أمير الجيوش البرانية جالسًا على حافة النافذة، غير مبالٍ بنا، يمسك غليونًا طويلًا ويحاول إشعاله، يصدر منه نفثات من الدخان

المتقطع.. كانت الشمس تصعد من خلفه في هدوء قاتل.. سادت لحظة من الصمت.. جلست سامية فوق الكرسي:

- أنا التي ذهبت معهم.

١٩٧٥

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

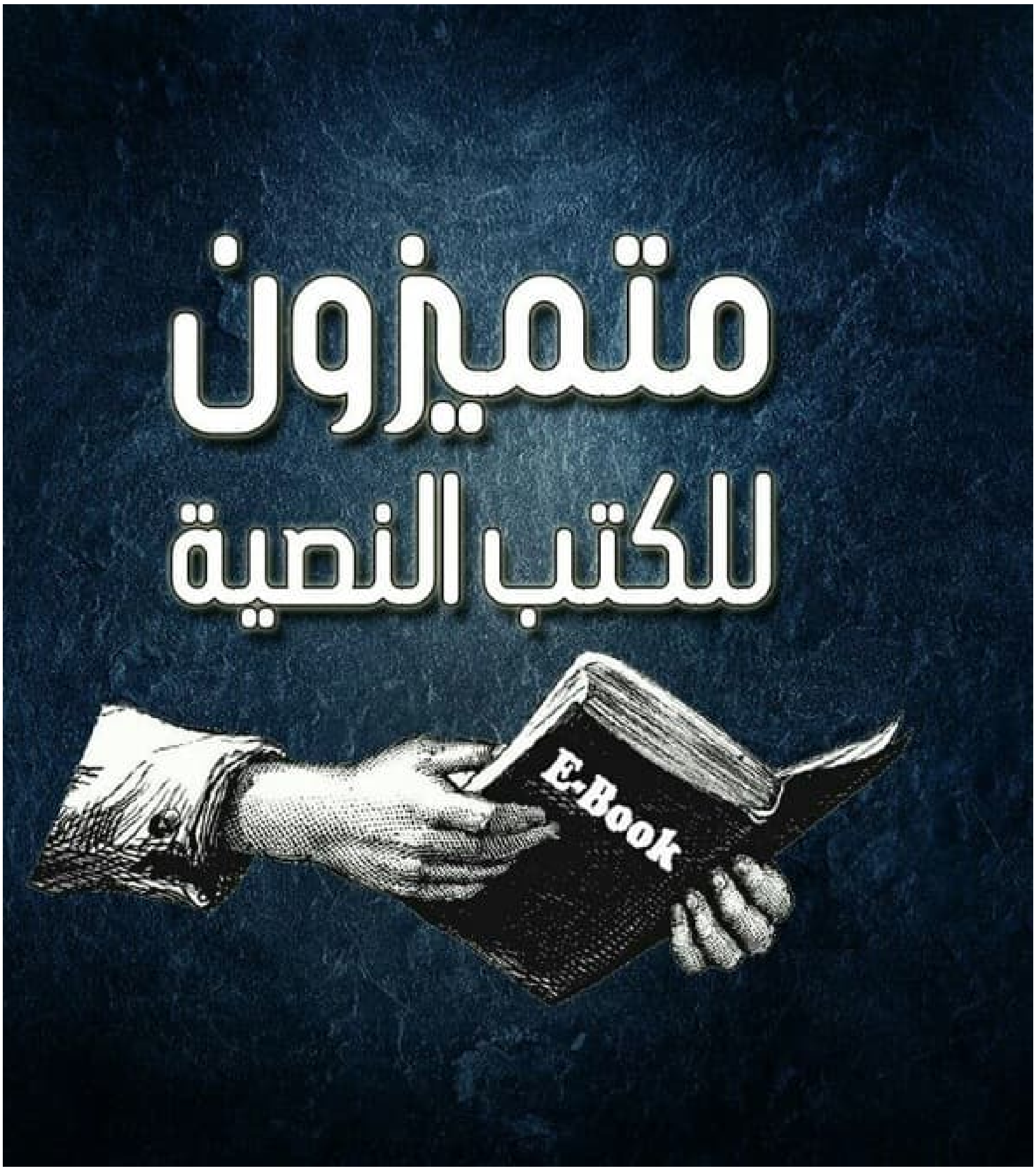
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات

عن الكتاب..

خمس قصص قصيرة و أغنية لأبي

١

٢

٣

٤

٥

٦

البراري

أغنية المشرحة الخالية

الجزء الأخير من الليل

سعفان مات

الأشياء

الفراغ..

ثلاث حركات بطيئة

حكايات قديمة

الحكاية الأولى: علاء الدين

الحكاية الثانية: معروف الإسكافي..

الحكاية الثالثة: زينة النساء!

الحكاية الرابعة: السندباد..

البوار

رحلة المعلم منسي وولده محمد

١

٢

٣

سوف نعيد ترتيب كل شيء

لحظة يمتلئ الجرح بالرماد

٧ قصص قصيرة جدًّا

١

٢

٣

٤

٥

٦

٧

مَن الذي قتل مريم الصافي؟

المماليك يعودون خلسة